

محمد عصمت

سيامي

رواية

إهداء...

إلى من ملكت روحي وأسرت قلبي واحتلت كياني

زوجتي العزيزة.. شكرًا على كُل شيء، فبدونك.. أنا لا شيء

قرود بابا الصغار..

بحبكم يا من جعلتم لحياتي معنى.. لا حرمني الله منكم أبدًا.

شكر لا بد منه...

شكر لـ أ/ حسام حسين.. الأب الروحي لي ولكُل كُتاب دار ن

شكر لـ أ/ طارق وافي.. الصديق والأخ الجدع الموجود دائمًا

شكر لـ أ/ باسم الخشن.. كُنت دومًا سند لقيته لمَّا احتجته.

تمهيد

كانا مُتطابقين، حتى ليظنهما الرائي شخصًا واحدًا لولا أن أحدهما تظهر على مُحياه ملامح الغضب العارم وهو يرتعِد غير قادر على السيطرة على نفسه، بينما يتراجَع الآخر أمامه بخوف وهو يرفع يديه أمامه في استسلام وعلامات الذعر تبدو على وجهه.

ورغم أنهما توأم مُتطابَق، إلا أنهما لم يكونا يومًا من أعاجيب الحياة أو مما يلفت نظر أي شخص، على عكس العديد والعديد من التوائم المُتطابقة في كُل مكان حول العالم، لكن هذا طبيعي.. حين يزداد الشيء عن حده، يفقد بريقه.

الغاضب كان يتقدَّم بخطوات سريعة وهو يرتجِف من شدة الغضب، بينما الخائف كان يتراجَع بخطواتٍ بطيئة وكأنه غير مُصدِّق أن توأمه يُهدِّده بهذه الطريقة، رفع يديه عاليًا وهو يقول بصوتٍ مُرتجِف: عليك أن تهدأ قليلًا. صرخ الغاضِب في ثورة: أهدأ؟ كيف تريدني أن أهدأ بعد الذي فعلته؟. تراجِع الخائِف خطوة أخرى وهو يقول: هناك سوء فهم، يجب أن تهدأ وتسمعني. ابتسم الغاضِب بسُخرية وهو يقول: يجب أن تهدأ أنت قليلًا، أنت توأمي، أكثر من يعرفني في هذه الدنيا، اهدأ قليلًا من فضلك لأنك تعرف جيدًا أنني

طالما اتخذت قرارًا، فلن أتوقَّف حتى أنفِّذه. صرخ الخائِف وهو يرتعِد: عليك أن تتحدَّث معها، ستؤكِّد لك أن الأمر ليس صحيحًا. ارتسمَت علامات الاشمئزاز على وجهه بعدما أتى توأمه على ذكرها قبل أن يقول: الموتى لا يتحدَّثون. اتسعت عينا الخائِف وهو يرتعِد مُردِّدًا كلمات توأمه التي لم يُصدِقها: الموتى؟ هل.. هل قتلتها؟. ابتسم الغاضب بسُخرية مرة أخرى وهو يقول: ستعرِف إجابة هذا السؤال بعد قليل. شعر الخائِف بالحائط من خلفه، عَرِف أن هذه هي نهاية رحلته في التراجُع للخلف، وأن عليه الآن أن يرتجِل أي شيء يساعده في الاحتفاظ بحياته، فكَّر سريعًا وهو يُراقِب شقيقه يقترِب منه، يُمسِك بين يديه ساطورا، هذه الدماء الجافة التي تسكُن نصل الساطور هي دماؤها؟ أم أنها دماء شيء آخر؟ أو.. أو تراه شخصًا ثالثًا؟

فكِّر.. فكِّر.. فكِّر.. هكذا أمر نفسه همسًا كيلا يفقد تركيزه أمام النصل الحاد الذي يقترِب منه أو بسبب الابتسامة الساخرة بساطور تقطيع اللحم الضخم، هل تلك الدماء التي تُغطي وجه أخيه اللعين، أو بسبب الجنون الذي يرقص رقصة حقد في عينيه..

« هل تتذكَّر عمتك رئيفة؟. ارتبك الغاضِب وهو يعقد حاجبيه، لم يفهَم ما شأن عمته رئيفة - رحمها الله -

بالمُشكلة التي يواجهونها الآن والتي تسبَّب فيها توأمه، لكن ربما كانت خطة من خططه لتشتيته وإخراجه من تركيزه، لطالما كان شقيقه هو التوأم الذكي، بينما عَرِف هو منذ البداية أنه ليس ذكيًا فلجأ للعُنف.

اتخذّ قراره ألا يسمح لشقيقه بمُمارسة ألاعيبه الذكية عليه، صرخ به بغضب: لا أريد أن أتذكرها. بحث الخائِف عن مكان يهرب إليه بعيدًا عن بطش توأمه الغاضِب، لكن الأمر كان صعبًا، كان حبيسًا ركن غرفة بابها أبعد إليه من هدوء توأمه، قال بتوتُّر: لطالما قالت عمتك رئيفة أننا روحًا واحدةً في جسدين، وأن لكُل منا نصف روح، ولهذا علينا أن نظل معًا طوال الوقت، قالها وهو يتقدم خطوة للأمام فاردًا صدره، كان يعرف أنها مُجازفة وأنه بهذا الوضع يسمَح لأخيه بضربه ضربة قاتلة دون تردُّد، لكنه أيضًا كان يعرف أن شقيقه كثير التردُّد لا يتخذ قرارًا منذ الوهلة الأولى، لذا قرَّر أن يتمسَّك بمُجازفته، وكما توقَّع، تردَّد شقيقه وهو يقول: سأقتلك. الآن، هل تريد قتلي؟ تفضَّل.

لكنه وللوهلة الأولى منذ دَخَل إلى بيته يبدو عليه التردُّد قليلًا، وهذه فرصة عظيمة، وبالطبع كان الخائِف أذكى من أن يتركها تنساب من بين يديه لتضيع، قرَّر أن يطرُق على الحديد وهو ساخِن، قال بصوتٍ بدأت الثقة تتسلَّل إليه:

هل ستقتلني وتخاطِر أن تعيش بنصف روح؟ هل تعرف أي شخص عاش بنصف روح؟. فكَّر الغاضِب قليلًا وهو ينزل يده التي تحمِل الساطور للمرة الأولى منذ دخل إلى المنزل قائلًا: أمجد ابن الحاج تُهامي عاش بعد أن قتل الثور توأمه أكرم، وما زال حيًا يُرزَق حتى الآن.

كان الخائِف يعلم هذه جيدًا، علميًا، عمليًا، طبيًا، منطقيًا، وبديهيًا لا مانِع من حياة أحد التوائم بشكلٍ طبيعي بعد وفاة توأمه، لكن شقيقه لم يكُن يعرف هذا، لهذا بدأ باستغلال هذه الفرصة وهو يعلم يقينًا أنها فرصته الأخيرة إن أراد الحياة.

قال وهو ينظر لباب الغرفة ويحسِب عدد الخطوات التي تفصل بينه وبين هروبه من هذا الموت المُحقَّق الذي يُحاصره: لكن العمة رئيفة لم تقُل يومًا أن توأم التهامية يعيشان بروح واحدة.

ابتسم الغاضب بسُخرية وهو يقول: أتعرف.. سأقوم بتلك المُجازفة، أنا لا أهتم لحياتي الآن رفع يده وضربه بالساطور بالقوة، لكن توأمه كان قد توقَّع الضربة، تفاداها بخفة وهو يدفع شقيقه جانبًا ويُسرِع نحو الباب المُغلَق، حاول الغاضِب أن يستعيد توازنه سريعًا بعد أن استند بيده إلى الأريكة حمراء اللون، لطالما كان ذوق شقيقه مُريعًا، ركض خلفه متأخرًا عنه بعدة خطوات، حاول أن يضربه بالساطور لكنه

مرق في الهواء دون أن يمسَّه، وصل شقيقه الخائِف إلى باب الشقة ونجح في فتحه بالفعل، لكنه تعطَّل لبضع ثوانٍ قليلة كانت كافية ليلحَق به الآخر وهو يستشيط غضبًا بسبب هذه المُطاردة الصغيرة.

استدار بعد أن فتح الباب وقد أيقن استحالة الهروب، لكن كان عليه أن يفكِّر في استراتيجية أخرى للهروب من هنا أو للنجاة بحياته، في حين أن توأمه كان قد اتخذ قراره وبدأ بتنفيذه غير عابئ بأي شيء آخر.

تناثرت قطرات الدماء على وجهه لتلوِّث ملابسه، مسح الدم عن عينيه وهو ينظر لشقيقه الذي سقط أرضًا بعد أن تخلَّت عنه رأسه وانفك ترابطها مع عنقه بعد عدة ضربات، صحيح أن الضربة الأولى كانت كافية لقتله، لكنها احتاجت لأخريات كي يُفصَل رأسه عن عنقه!

على أي حال، عليه أن يقطع الجُثة الآن لقطعٍ صغيرةٍ كي يستطيع التخلُّص منها، أما ملابسه فسيحرقها، من حسن حظه أنه وشقيقه الراحِل يمتلكان نفس المقاس وذات الذوق في انتقاء الملابس، كما أنه لم يتزوَّج بعد، كان الأمر أسهَل مما توقَّع.

جر الجُثة بعيدًا عن الباب ليستطيع إغلاقه كيلا يلاحظه أحد الجيران، رغم علمه أن البناية خالية تمامًا ولا يسكنُها

أحد، خلفت الجُثة سيلًا من الدماء خلفها، اللعنة.. سيتحتَّم عليه أن يمسح كل تلك الدماء، عليه ألا يترك دليلًا واحدًا يكشف خطته أو ما فعل.

ترك الجُثة أرضًا وعاد للباب من أجل أن يغلقه، وفي اللحظة الأخيرة سمعها

ميــــــاوو..

مياو؟ فتح الباب مرة أخرى وهو ينظر للأسفل، ورآها رغم الظلام، قطة بيضاء صغيرة الحجم تختفي وسط الظلام، بالتأكيد رأته.. بالتأكيد تعرف ما فعله.. بالتأكيد ستفضَح سره!!

اللعنة.. الآن عليه أن يتخلّص من الجُثتين ثم يبحث عن تلك القطة الصغيرة اللعينة قبل أن تخبر الجميع بما فعل وتكشف سره للقرية بأكملها..

عليه أن يمنعها من الحديث!

الباب الأول
بوابات الجحيم

(1)

كانت غُرفة مُظلمة، ضيقة بعض الشيء، وعلى الرغم من ضيقها إلا أن جنباتها اتسعت لاستقبال خمسة أشخاص يجلسون بجوار بعضهم البعض في شكل دائري، ينظر ثلاثة منهم للاثنين الآخرين بشكٍ وتوترٍ، مال شخص ضخم الجُثة نحو شخص آخر بدين يجلس بجواره وهو يقول: رأفت.. هل أنت مُتأكِّد أنه ساحِر حقيقي وليس نصابًا مثل آخر شخص أحضرته. ضربه رأفت بكوعه وهو يقول: أريدك أن تهدأ قليلًا يا موسى، حتى لو كان نصابًا، فيكفينا شرف المحاولة. كان رأفت يجلس في المُنتصف، بدين بعض الشيء، شعره خفيف، قميصه مليء بالعرق بسبب ارتفاع درجة حرارة الغُرفة قليلًا بسبب الشموع المُضاءة هنا وهناك، يبتسِم بحماس وهو يُراقب الشخصين الموجودين في الجهة الأخرى من الغُرفة.

بينما عن يمينه يجلس موسى أبو المكارم، حليق الرأس، ضخم الجُثة، يظُن دائمًا من يرى موسى للمرة الأولى أنه أحد المُصارعين المُحترفين، يبدو عليه الغضب دائمًا وكأنه

يحمِل على كتفيه هم العالم بأكمله، يرتدي قميصًا بلا أكمام ليُبرِز عضلات يديه الضخمتين، يجلس مُنعقِد الحاجبين، كان يشعُر بعدم الرضا وبأنه يقع ضحية لأمرٍ ما لم يكتشفه بعد، لكن الحقيقة أن هذا شعور دائمًا ما يشعُر به طوال الوقت.

عن يسار رأفت تجلس فتاة ضئيلة الحجم بعض الشيء، زينب الراعي، متوسطة الجمال، لا يوجد فيها أي شيء مُميَّز، شعرها ناعم طويل، تصفِّفه على هيئة ضفيرة تستريح فوق كتفها الأيسر، ترتدي فستانًا طويلًا أسود اللون مُزيَّن بورود حمراء، تعض شفتها السُفلى في توتُّر، مالت نحو رأفت وهي تهمس له بصوتٍ خافتٍ: ماذا يُريد موسى؟. ابتسم رأفت وهو يقول: يعتقِد أن الشيخ كرم نصَّاب مثل الشيخ إجلال. عضت شفتها السُفلي بتوتُّر وهي تقول: هل تظن أنه صادِق؟. ابتسم وهو يُراقِب الشيخ كرم المشغول بتجهيز بعض أنواع البخور في إناء معدني مليء بالفحم، ويُتمتِم بكلماتٍ غريبةٍ لم يسمعها أيهم من قبل، على الرغم من اهتمامهم جميعًا بالأمور الغريبة والماورائية، يُحِب الثلاثة الرعب ويعشقون الغموض، قرأوا العديد من الروايات وشاهدوا الكثير من الأفلام التي تدور أحداثها جميعًا في أجواء مُرعِبة ومُقبِضة، لكنهم لم يشعروا يومًا بالخوف من كتاب قرأوه أو فيلم شاهدوه، بالعكس.. كثير من هذه الأشياء كان يثير ضحكهم لتفاهته أو سوء مُعالجته للمواقِف المُرعبة، لهذا لجأوا بعد

كثير من النقاش لضرورة اقتحامهم لهذا العالم، حضروا العديد من جلسات طرد الجن والأرواح الشريرة، لكن هذه الجلسات لم تُقنعهم أو ترضي فضولهم!

منذ شهرٍ أو يزيد، قال موسي وهو يعبث في هاتفه بعدم اهتمام بينما يُشاهِد رأفت وزينب يتبادلان أطراف الحديث أمام فيلم قديم سبق وأن شاهدوه: «أشعر بالملل. نظرت إليه زينب وهي تقول بدهشة: أنت تُحب هذا الفيلم!. قال وهو يُلقي بهاتفه بجواره: كُنت أحبه في أول مئتين وخمسين مرة شاهدته فيها. سأله رأفت وهو يُمسِك بجهاز التحكُّم: هل تريد أن تشاهِد فيلمًا آخرًا؟. قام من مكانه وهو يقول: لا.. سأخرج لأرى أحوال العمل قليلًا، سيقتلني الملل. يجلس الثلاثة في غرفة خاصة أسسوها داخل مطعم صغير يتشاركون إدارته سويًا، عادةً ما تحضِر زينب في البداية، تجلس مع العاملين بالوردية الصباحية لتُتابِع مجريات العمل إلى أن يحضِر رأفت ليتسلَّم منها إدارة المطعم في وردية بعد الظهر، أما موسى فيُدير وردية الليل لأنه كائن ليلي نادرً ما ينام أو يرتاح، لكنهم في بعض الأحيان يحضرون للمطعم ليتشاركوا الوقت في مكتبهم في مشاهدة أحد أفلام الرعب الجديدة أو شيء ما من هذا القبيل.

دخل موسى إلى المكتب بعد قليل وهو يقول بحماس:

لماذا لا نُجرِّب؟. شعر رأفت بالحماس وهو يقف ليقول بصوتٍ عالٍ: أنا موافق وبدأ في قراءة سورة الفاتحة، بدأت السلة تهتز بعد قليل، شهق رأفت في خوف بينما كاد موسى أن يترك السلة لولا أن زجره الشيخ إجلال في اللحظة الأخيرة، بدأ الوسيط الروحاني في إطلاق أصوات غريبة وعينيه تنقلبان إلى الأعلى، وأمسك بقلمًا وورقة قديمة كان إجلال قد وضعهما أمامه وبدأ يكتب بلُغةٍ غريبةٍ.

كان إجلال يتولى الترجمة للجميع بعد أن يقرأ ما كتب الوسيط الروحاني، كان يقول أشياء من شأن أي شخص أن يقولها، لا شيء مُميَّز، لكن الطريقة التي يقول بها هذه الأمور كانت طريقة مُخيفة مما أضفى رهبة غريبة على ما ينطق به من تفاهات، لولا أن قال الشيخ إجلال في وسط كلامه أن الوسيط الروحاني يكتب باللغة البرازيلية لأنهم نجحوا في تحضير روح سياسي برازيلي، قال موسى بعصبية شديدة أنهم يتحدَّثون البرتغالية في البرازيل، ونعت الشيخ بالحماقة واتهمه بالنصب، بدأت السلة في الاهتزاز بشدة بين يدي موسى ورأفت، توتَّرت الأجواء والشيخ إجلال يصرخ: أنت أحمق.. لقد أثرت غضبه. شعر موسى بالخوف فألقى السلة لتسقط أرضًا وينكسر قاعها ليظهر منه ماكينة صغيرة تعمل عن بُعد، كان رأفت ذكيًا، وفهِم الأمر مُباشرةً على عكس موسى الذي نظر لها ببلاهة دون أن يفقه شيئًا مما حدث،

وتوارت زينب في ركن الغرفة وهي تكاد تبكي من شدة الخوف والتوتُّر، ابتسم رأفت وهو يضغط زر إضاءة المكتب ويُمسِك بالماكينة قائلًا: لقد رأيت هذا الشيء من قبل، هذه ماكينة اهتزاز، وبكُل تأكيد هي التي كانت تهز السلة.

قبل أن يهدأ وينظر لموسى بخيبة أمل وهو يقول: ماذا سنجرب؟. زفر موسى في ملل وهو يقول: نحن نحب الرعب، أليس كذلك؟. هزَّت زينب رأسها وهي تقول: أنت تعرف هذا جيدًا منذ أن كُنا زملاء في كلية واحدة، وقبل حتى أن نتشارَك في هذا المطعم. ابتسم وهو يقول بحماس: لماذا نكتفي دائمًا بالمُشاهدة والمُطالعة؟ لماذا لا نُجرِّب اقتحام هذا العالم؟ نحن نمتلك من الخبرة ما يكفي. رفع رأفت حاجبيه في دهشة وهو يقول: على الرغم من غرابتها إلا أنها بالفعل فكرة أكثر من رائعة، أنا موافق. تردَّدت زينب وهي تقول: لكن.. لكن هذه العوالم تتطلَّب خبرات لا نملكها، وإن أخطأنا... قاطعها موسى قائلًا: لن نُخطئ، أنا أعرف أحد الشيوخ الموثوق بهم، يُدعى الشيخ إجلال، سنحضره إلى هنا في يوم أجازة المطعم من أجل جلسة تحضير أرواح. شهقت زينب بخوفٍ وهي تقول: تحضير أرواح؟. قبل أن يجيبها موسى، صافحه رأفت بحماس قائلًا: أنا موافق. نظر لزينب وهو يسألها بسُخرية: هل أنتِ موافقة أيتها الجبانة؟ أم أنك - مثل كُل مرة - ستشعرين بالخوف؟. شعرت

بالغضب بسبب كلماته الساخرة، وقفت بتحدي وهي تقول: وأنا معكُما أيها الحمقى. لكن الشيخ إجلال كان نصابًا مُمتازًا، حضر إلى المنزل بصُحبة شابٍ صغيرٍ قدمه على أنه وسيط روحاني يعمل معه، وأقام جلسة تحضير أرواح بطريقة السلة وهي أحد أشهر الطُرق التي يستخدمها العديدون في تحضير الأرواح، أحضر الشيخ إجلال سلة قديمة، سلة من السِلال التي عادةً ما تحملها النساء لتتسوَّق في الأسواق الشعبية القديمة، وضع داخلها قطعتين مُتقاطعتين من الخشب، غطاها بقميصٍ قديمٍ، وفي أعلى هذا القميص رسم صورة لوجه شخص بشري على قطعة من الورق وهو يضعها في أعلى القميص، أشعل عودين من البخور وثبتهما فوق القميص، ثم وضع في مقدمة السلة قلمًا من الرصاص، طلب من رأفت وموسي أن يحملا السلة في مواجهة بعضهما البعض، بهذه الطريقة، لكن لابد لها من مُحفِّز.. ربما يكون زرًا أو جهاز تحكُّم. انطلق موسى نحو الشيخ إجلال سريعًا وهو يُمسِك بتلابيبه آمرًا إياه في غضب أن يخرج جهاز التحكُّم، في البداية حاول الشيخ إجلال أن يحذره من غضبة الأرواح وعقابها لكن لكمة من قبضة موسى إلى أنفه الذي بدأ ينزِف كانت كافية ليولول بصوتٍ حادٍ وهو يبكي ويُقسِم أنه لا يملك أي أجهزة تحكُّم، أما رأفت فوضع الماكينة بمُنتهى الهدوء وهو يتوجَّه نحو الوسيط الروحاني ببطء، نزل على

ركبته أمامه وهو يشير له أن يمُد قدمه اليسرى، تردَّد الفتي للحظة لكن أنف إجلال النازِف كان مُقنِعًا له ليمُد قدمه دون نقاش، خلع رأفت حذائه وهو يتحسَّس بيده الحذاء من الداخِل، بعد لحظات ابتسم وهو يضغط على منطقة مُعيَّنة لتهتز الماكينة على المكتب.

قال رأفت مُبتسمًا: لاحظت منذ دخلا إلى هنا الطريقة التي يمشي بها هذا الفتى، يمشي برفقٍ وكأنه يخشى الضغط على شيءٍ ما، كما لفت نظري أنه أحضَر سلته معه، لو أنه صادِق لبحث عن سلة هنا، لكنه يريد سلته المُجهَّزة، لفت نظري كذلك أن الفتي يدق بقدمه أرضًا كلما اهتزَّت السلة، فهمت أن الأمر مُتعلِّق بحذائه، الأمر بسيط لكنه يحتاج للكثير من قوة المُلاحظة. قبل أن يُدافع أيهما عن نفسه سأله موسى: هل تعرف إلا يحتاج الأمر أيضًا؟. سألته زينب وقد بدأت تشعر بالأمان قليلًا: ماذا؟. قال موسى وهو يلكم الشيخ مرة أخرى: يحتاج الكثير من اللكمات.. بعد هذه الحادثة بأسبوعين دخل رأفت إلى المكتب وهو يقول مُبتسمًا: كرم. قال موسى بسُرعة: أمانة. سأله رأفت مُنعقِد الحاجبين: ماذا تقول؟. ظهرت علامات الإحراج على موسى وهو يقول: ظننت أننا نقول صفات نتمتَّع بها. زفر رأفت في يأس وهو يهز رأسه قليلًا قبل أن يقول: الشيخ كرم.. وجدته. لمعت عينا زينب في فضول وهي تقول: جلسة تحضير أرواح جديدة؟. قال

موسى وعلامات عدم الاقتناع تبدو جليةً على وجهه: نصاب جديد. لهذا كان موسى ينظر للشيخ كرم وهو يملأ الإناء المعدني بالفحم والبخور بغير اقتناع، قبل أن ينظر للفتى الذي يجلس بكسل بجوار الشيخ، جلس كلاهما في ناحية، وجلس الأصدقاء الثلاثة في الناحية الأخرى، وبينهما مكتب صغير.

رفع الشيخ كرم عينيه من فوق الإناء للمرة الأولى منذ أن وطأت قدماه أرض المكتب وهو يقول بابتسامةٍ مُخيفةٍ: أنا جاهز!.

(2)

لطالما كان الشيخ كرم شخصًا مهيبًا بين جموع العامة، منذ صِغره وهو يمتلِك هذه الهالة التي تحيط به وتضفي عليه الكثير من الغموض، وللأمانة.. كان كرم ذكيًا، فَهِم الأمر وعرف كيف يحافِظ عليه ويطوِّره، تدرَّب كثيرًا أمام المرآة على تلك النظرة التي تجعل من أمامه يهابه ويخشاه، قلَّل من كلامه للدرجة التي جعلت الجميع يحترمونه، اتخذ من كتب السحر أصحابًا ومن طُرق التحضير أخلالًا، منذ طفولته وهو يرى أحلامًا تتحقَّق ورؤى تتنفَّذ، منذ صِغره وهو يعرف ما يخفي المرء وما يُبطِن بمُجرَّد نظرة واحدة وكأنه يقرأ الأرواح.

الفترة الأخيرة كانت عصره الذهبي، ذاع صيته وزادت شُهرته، استطاع بفضل الله ونعمته - كما كان يُردِّد دائمًا - أن يكون عونًا للمحتاجين وسندًا للطالبين، استعان بكتاب الله وتعاليمه في مُساعدة من يرجو مُساعدته، لم يطلُب أموالًا أو هدايا عينية مثلما كان يفعل الكثير من الشيوخ، كان يؤجر أقل القليل ويأخذ ما يكفيه لسد احتياجات حياته الأساسية.

وجد متولي نائمًا على بابه ذات يوم، لم يتبادلا أطراف الحديث أبدًا، عَرِف كُل ما أراد معرفته بنظرة واحدة في

عيني متولي، اليتيم الهارِب من عذاب زوجة أبيه، كسول كمن لم يعرف للنشاط معنى طوال حياته، ينام وكأنه لديه هدفًا يقتضي النوم لساعاتٍ مُحدَّدة، لكن الفتي كان يتمتَّع بشفافيةً هائلةً، عَرِف كرم أن متولي هنا لمُساعدته وأن الأقدار قادت الفتي إلى بابه عن عمد، كما عَرِف متولي هذا بمُجرَّد أن رأي باب دار كرم فاضطجع أمامها عالمًا في قرار نفسه أن هذه هي نهاية رحلته، بينما لم تُكلِّف زوجه أبيه – التي قتلت أبيه غمًا وهمًا – نفسها عناء إيجاده ومشقة العثور عليه.

من يومها ومتولي مُلتصِق بكرم، وعلى الرغم من عدد ساعات النوم الطويل التي ينامها متولي والذي قد يصِل في بعض الأحيان لعشرين ساعة يوميًا إلا أنه موجود دائمًا حين يحتاجُه، حتى الآن والشيخ كرم يُعلِن جاهزيته مُبتسمًا لجمهوره الصغير الذي لم يتعد ثلاثة من الشباب الخائِف كان متولي ناعسًا بجواره على مقعده، فتح عينه بكسل ليُطالعهم قبل أن يتثاءب وهو يعتدِل على مقعده وهو ينظر إليهم بطرف عينه كالثعلب.

تنهَّد الشيخ كرم وهو يقول بهدوءٍ وصبرٍ: قبل أن نبدأ يجب أن تعرفوا بعض الأمور الهامة، كي ينجح هذا الأمر وتحدث هذه الجلسة يجب أن نتَّفِق على بعض الأشياء،

هل تفهمونني؟. زادت نظرة الشك الكامِنة في عيني موسى، ابتلعت زينب ريقها بصعوبة وهي تحاول السيطرة على قلبها الذي ما طَفَق يدُق بسُرعةٍ جنونيةٍ، بينما قال رأفت بحماس طفل يرى أمامه ألعاب المولد: أجل. قال الشيخ وهو يُلقي ببعض حبات البخور في إناءه ويراها تُطقطق فوق الفحم المُستعِرة جمراته: في البداية، وقبل أي شيء، يجب أن أعرف الهدف من خلف تلك الجلسة، سامحوني

في السؤال.. لكن يجب أن أعرف هذا جيدًا لأنني سأكون المسؤول عن كُل شيء.

تبادل الثلاثة النظرات في قلق قبل أن يتطوَّع رأفت بالإجابة: الفضول.. نريد أن نحضِر جلسة تحضير أرواح حقيقية، وقد سمعنا عن براعتك وأمانتك وصدقـ... قاطعه الشيخ كرم مُبتسِمًا وهو يُخرج كيسًا من بين طيات ملابسه: لا تحتاج لمُداهنتي يا رأفت، كيف حال والدتك.. السيدة عزيزة. شهق رأفت وهو ينظر لموسى بخوف مُتمتمًا: كيف.. كيف عرفت اسم والدتي؟. قال موسى دون أن تبدو عليه علامات الانبهار: يبدو أن الشيخ كرم قد ذاكر دروسه جيدًا قبل أن يأتي إلى هنا.. أليس كذلك يا شيخ كرم؟. تجاهَل كرم السُخرية التي تُقطّر من سؤالِه وهو يفتح الكيس مُتشمّمًا ما بداخله قبل أن يقول: هذا حقيقي يا سيد موسى، هل يعرف

أصدقائك لماذا يُطلقون عليك لقب أبو المكارِم رغم أنه ليس اسمك؟. نظر رأفت إليه بدهشة وهو يردِّد كلام الشيخ: ليس اسمك الحقيقي؟.

انعقد حاجبا موسى بشدة وقد أيقن بشيئين، أولهما أن الشيخ يعرف جيدًا أنهم سموه أبو المكارم لأنه لطالما ردَّد أنه يمتلِك بعض الكرامات لكنه فشل في إثبات الأمر طوال الوقت، إلا من بضع مواقِف تصرَّف فيها بطريقة غريبة بناءً على مُعطيات شعر بها دون أن يعرف لها سببًا، والثاني أن عليه الآن تفسير الأمر لأصدقائه وكشف سرًا لطالما حاول إخفاءه.

قال موسى بغضب مُمتزِج ببعض الخوف: سنتحدَّث فيما بعد. حاول رأفت الاعتراض وهو يقول: لكن... نظر له موسى ونيران الغضب تستعِر في عينيه قائلًا في بطء: سنتحدَّث.. فيما.. بعد. أخرج الشيخ كرم بعض المسحوق أحمر اللون الذي كان موجودًا داخل الكيس ونثره فوق الفحم وهو يسأل زينب: وأنت يا زينب يا بنت الراعي، هل ما زال حسنين الجمَّال يُطاردكِ؟. كان ثلاثتهم يعرف من هو حسنين الجمَّال، لهذا وقع السؤال عليهم وقع الصاعقة، نظر الجميع نحو زينب التي بدأت تحمر خجلًا وقد أدركت أنها الآن محوَّر الاهتمام، وأن النظرات تنصب عليها صبًا، لطالما طاردها

حسنين منذ أن كانت صغيره، ابن خالتها هو لكنه شخص لزج يتمتَّع بثقل دم غير طبيعي، أنهى دراسته وتعيَّن - بواسطةٍ كبيرةٍ - في أرشيف وزارة الداخلية، مسؤولًا عن تنظيم وترتيب ملفات القضايا في قبو ضخم تحت الأرض في مكان سري، لا يُصاحبه فيه سوى ملفات قضايا قديمة والكثير من الغبار، لكن حسنين وبطريقةٍ ما ظن أن عمله في أرشيف وزارة الداخلية جعل منه لواءً لا تُرَد له كلمة ودائمًا ما كان يتعجَّب رفض زينب له، لأن زينب كانت طوال الوقت تُخفى إعجابًا سريًا بشخص لم تُصرِّح بهويته يومًا.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشم رائحة طيبة تملأ المكان جراء احتراق المسحوق الأحمر وتقول بكثيرٍ من التلعثم: أجل.. لكنه.. لكنني.. لكن أنا.. لا أطيقه. تثاءب متولي والشيخ كرم يقول لها بابتسامة: أعرف هذا يقينًا. كما عرف الجميع يقينًا أنه لم يكُن مُضطرًا لطرح هذه الأسئلة لأنه يعرف إجاباتها قبل أن يسألها، لكنه أراد أن يثبت لهم مدى تمكُّنه من أدواته، كما أنه أراد أن يذيب جليد الشك الذي سكن روح وقلب موسى الجالس في مواجهته.

صمت قليلًا قبل أن يقول في تحذير: ليس كُل الفضول نافعًا، ولا في كُل السعي خلف المعرفة فائدةً، هل أنتم مُصّرون على المُضي قدمًا؟ هز الجميع رؤوسهم دون

أن يقدِر أحدهم على أن ينبُس ببنت شفة، سألهم الشيخ كرم مرةً أخرى: هل قرَّرتُم أي روح ستحضرون؟. تبادلوا النظرات قبل أن يقول رأفت متطوّعًا بالنيابة عن زملائِه: في الحقيقة.. في الحقيقة لم نُقرِّر هذا الأمر، لكن هل بإمكاننا أن نُحضِّر روح أحد القتلة المُتسلسلين أو شيء من هذا القبيل، نريد لهذه الجلسة أن تكون فريدةً من نوعها. فكَّر الشيخ كرم قليلًا وهو يخرج عبوةً بلاستيكية صغيرة من جيبه ويُخرج منها بضع كراتٍ صغيرة تشممها لوهلة قبل أن يُلقي بها فوق الفحم المُستعِر وهو يقول: عين العفريت، أعتقد أنكم تعرفونها جيدًا. هزوا رؤوسهم قبل أن تطقطق عيون العفاريت وهو يقول في لهجةٍ تحذيريةٍ: يجب أن أحذركم أيضًا من الصراخ أو الصوت العالي أو حتى الحركات المُفاجِئة، خصوصًا أنت يا فتي... قالها وهو يُشير نحو موسى الذي احمرت وجنتيه خجلًا وضيقًا، قبل أن يتوجَّه الشيخ بناظره نحو زينب وهو يُحذرها مُغلفًا تحذيره بابتسامةٍ رقيقةٍ: لا أريدك أن تشعري بالخوف، لأن الخوف والشك وعدم اليقين يضعفون من قدراتي على التحكُّم بالجلسة والسيطرة على الروح، حاولي الهدوء.. فكِّري دومًا في أمور إيجابية ولا تقلقي أو تتوتّري. هزَّت رأسها غير مُتأكِّدة من قدرتها على التعامُل مع هذا الأمر، لكنها لم تملُك سوى الموافقة على كلامه والإنصات لتعليماته، تثاءب متولي

مرةً أخرى وهو يُطالعهم كأنه قط صغير يرى مالكيه للمرة الأولى، مسح الشيخ كرم على رأسه وهو يتمتم ببعض كلمات لم يتبينها الجالسين أمامه قبل أن يقول لهم:

« استرخوا، استريحوا، وأهدئوا، لا أريد أن يُحدِّث أحدكُم الروح بطريقةٍ غير لائقة أو بأي ألفاظ نابية أو بأي نوع من أنواع السُخرية، أريدكم أن تتحلوا بالأدب واللياقة وكأنكم في حضرة آبائكم أو أمهاتكم وإلا... لم يكمِل جُملته لكن تحذيره كان واضحًا صريحًا، أكمَل حديثه قائلًا: والآن.. ونحن نجلس في الظلام ننتظر حضور الروح، أريد منكُم أن تسمعوا تحذيري الأهم والأخير.. لا أريد لأيكم تحت أي ظرف من الظروف ولأي سببٍ من الأسباب أن ينطِق أحدكم بحرفٍ واحدٍ عن حياته الشخصية أو عن أي شخص يعرفه. مال موسى نحو رأفت وهو يقول بهدوء: ذكرني أن نتحدَّث عن حسنين في حضور الروح. ابتسم رأفت ابتسامة لم تدُم سوى للحظات قبل أن يعتدِل وهو يرى الشيخ يمسح على رأس متولى وهو يُتمتِم بمجموعة من الأقسام والدعوات والعزائم بصوتٍ خافتٍ، استمرّ الأمر لبضع دقائق قبل أن يقول بصوتٍ عالٍ: أقسم عليكِ أيتها الروح الهائِمة أن ترفعي يد الوسيط في حالة حضورك. رفع متولي يده للأعلى ببطءٍ شديدٍ وعينيه مُغلقتين، شهقت زينب وهي تضع يدها على فمها لتمنع صرخةً كانت على وشك أن تندلِع، قال الشيخ

كرم بلهجةْ آمرة: أقسمت عليكِ أن تفرقي أصابِع اليد اليُمنى. بحركةٍ شبه آلية فرَّق متولي أصابِع يده اليُمنى أمام الجمع الذي يُشاهده بينما تكاد قلوبهم تتوقَّف هلعًا، بدأ جسد متولي يسترخي بطريقةٍ كانت واضحةً للعيان، أمسك الشيخ كرم بوسادة صغيرة أتى بها معه مُسبقًا، وضعها تحت رأس متولى وساعده على الاضطجاع بهدوء دون أن ينطِق بكلمة، غطى رأسه بقطعة من القماش النظيف وهو ينظر للثلاثة الجالسين أمامه قبل أن يسألهم بهدوء: هل أنتم جاهزين؟. هزوا رؤوسهم بكثيرٍ من التردُّد، قبل أن ينظر الشيخ كرم نحو متولي النائم بجواره وهو يسأل بصوتٍ عالٍ: هل أنت هنا؟. سمعوا من تحت قطعة القماش صوتًا أجشًا صدئًا يقول بلهجة ريفية واضحة: أجل.. هنا. لم يكُن الصوت طبيعيًا أبدًا، وعلى الرغم من اندلاعه من بين شفتي متولي إلا أنه كان يبدو وكأنه قادمًا من جحيم مُستعِر، اصفرّ وجه موسي وتزايدت نظرة الشك التي تلتمِع في عيني موسي، بينما بدأت زينب ترتجِف، نظر نحوهم الشيخ وهو يقول بصرامة: لنبدأ.. وإلا فُتِحَت علينا أبواب الجحيم.

(3)

التوتُّر يسود الأجواء، لا صوت يعلو فوق صوت دقّات القلوب الوجِلَة، الأنفاس تتقطّع، الخوف يزداد، الأجساد تخفي رَجَفات تسري بها في محاولات بائِسة للتظاهُر بالشجاعة، والشعيرات القصيرة التي تملأ مؤخّرات الأعناق تنتصِب جراء قشعريرات خوف اجتاحَت الأجساد، القلوب، والأرواح.

متولي مُسجى على الأريكة بجوار كرم، ومن تحت القميص الذي يغطيه يخرج صوتًا يُجمّد الدماء في عروقهم، علامات التوتُّر تظهر على الشيخ كرم خوفًا من أي رد فعل غير محسوب من الحاضرين تكون نتيجته ما لا تُحمَد عُقباه.

نظر إليهم كرم وهو يسأل الروح الحاضرة بثقةٍ مُغلَّفة بالخوف: هل أنت ذكر؟. لحظات ثقيلة من الصمت مرَّت قبل أن يسمَع الجميع الصوت الأجش من تحت قطعة القماش يقول بسُخرية: أجل، ظننت أنكُم تعرفون!. كاد موسى ينطِق بشيء ما لولا أن أشار له الشيخ بأن يلتزِم الصمت، فأنصَت لإشارته دون أن يقتنِع، قال كرم بأدبٍ جمٍ: نعلَم.. لكننا نُريد التأكُّد.

صمتوا لدقيقة مرَّت عليهم كقرن من الزمان دون أن

يأتيهم رد من تحت القماش، تشجَّع الشيخ كرم لطرح سؤاله التالي: هل أنت مصري؟. « أجل.» هل يُمكننا أن نسألَك بضع أسئلة؟. « أجل. « هل أنت من القاهرة؟. « لا.» هل أنت من الإسكندرية؟. « لا.» هل أنت من منطقة الدلتا؟ أو مُدن القناة؟. « لا.» هل أنت من الصعيد؟.

« أجل.» من مدينة من الصعيد؟. « لا.» من إحدى القُرى المُلحَقة بتلك المُدن؟. « أجل.» هل أنت من سوهاج، أسيوط، أو قنا؟. صمت الجميع للحظات طويلة لم يأتيهم فيها رد، تردَّد رأفت للحظة لكنه سُرعان ما حسم أمره وهو يهمس بصوتٍ خافتٍ: لماذا لا يُجيب؟. نظر له الشيخ كرم وهو يهمس: لا يريد الإجابة، علينا أن نعتاد على هذا الأمر، لن يجيبوا على بعض أسألتنا. مرة أخرى بدأ كرم بتوجيه الأسئلة وهو ينظر نحو الفتي المُغطى بالقماش: لماذا أنت هنا؟. أنتم من طلبتم وجودي!. ظهر الحرج على وجه كرم وهو يقول: أعرف هذا.. أقصِد لماذا أنت عالِق؟ لماذا روحَك لا تزال موجودة ها هنا في عالمنا؟. صمت الصوت قليلًا قبل أن يقول: هناك بعض الأشياء التي لابُد أن أفعلها أولًا قبل أن أرحَل من هنا. قرّر رأفت فجأة ودون أي مُقدِمات أن يتدخَّل في الأمر، سأل الروح فجأة: ما اسمك؟. أجابه الصوت بعد قليلٍ من الصمت: عادِل. بدأ رأفت يشعُر بالشجاعة، قرَّر التمادي في الأمر فسأله مرة أخرى: عادل ماذا؟

هذه المرة لم تأتهم إجابة صريحة وإنما سمع الجميع صوت طرقة عنيفة على المنضدة الموجودة بينهم وبين الشيخ كرم، طرقة اهتزَّت لها المنضدة وارتجفَت لها قلوبهم فزعًا، اتسعت عينا الشيخ كرم وقد سكنها غضب ممتزج بالخوف وهو يضع إبهامه على شفتيه في إشارة فهِم الجميع مغزاها وابتلعوا ألسنتهُم.

أمسك الشيخ كرم بدفة الحوار مرة أخرى وبدأ بالحديث مع الروح، في حالاتٍ عديدةٍ يطلُب الحضور تحضير روح مُعينة، حينها يتحتَّم عليه أن يطلُب منهم جميعًا أن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض قبل أن يبدأ بترديد جُملة: عزيزنا فلان، جئنا واحضرنا معنا الهدايا من الحياة إلى الموت، تواصل معنا يا فلان وتنقل بيننا، وعادةً ما تحضر الروح بسهولة، لكنها في مثل تلك الحالات لا تستطيع أن تُجيب على أي أسئلة سوى بنعم أو لا، وعادةً أيضًا ما تكون نعم تساوي ضربتين أو نقرتين على المنضدة بينما لا تساوي ضربة أو نقرة واحدة، لكنه في هذه الحالة يشعُر أنه عاجِز، لا يعرف شيئًا عن الروح التي أحضرها، يحاول أن يكتشف عنها أي شيء، لكنها لا تسمح له بسبر أغوار المعرفة، ويبدو أن الأمر لن ينتهي على ما يُرام، هكذا يُخبره قلبه.

سأل الروح: هل تريد أن تشاركنا على العمل غير المُنتهي

يا سيد عادِل لعل وعسى يستطيع أحدنا أن يُساعدك فيه إنهائه. « لا شأن لكم بالأمر. صاح موسى بغضب: نحن نحاوِل مُساعدتك!. صمتت الروح، لم يجبه الصوت الأجش، عضّ الشيخ على شفته السُفلى وهو يعرف أنه قريب للغاية من أبشع كوابيسه، وأنه إن لم يستطِع إحكام سيطرته على تلك الجلسة، سيكون رد الفعل عنيفًا، بل وأشنَع من كُل كوابيسهم.

نظر للثلاثة القابعين أمامه، ووجه تحذيره لهم جميعًا على الرغم من انكماش زينب وعدم قدرتها على التوقُّف عن الارتعاد قائلًا: إذا تحدَّث أحدكم دون إذن بعد هذه اللحظة، سأنهي الجلسة بأكملها، هل تفهمون؟. هز رأفت رأسه في تفهُّم، بينما عجزت زينب عن الحركة من الأساس، لكن نظرتها أخبرت الشيخ عن موافقتها، بادله موسى نظرات التحدي في عدم رضا قبل أن يسأله الشيخ مرة أخرى: هل فهمت يا موسى؟. هز رأسه بعدم اقتناع وبداخله إحساس أن الأمر كُله عبارة عن عملية نصب ودجل وقعوا ضحيتها بفضل رأفت الأحمق وسذاجته، لكن آثر الصمت والموافقة كيلا يسمَح لكرم باستغلال تلك الفرصة من أجل إفساد الأمر برمته.

ساد الصمت قليلًا قبل أن يقول الشيخ بحذر: هل ما زلت معنا يا سيد عادِل؟. « أجل، أنا هنا. سأله الشيخ بتأدُّب: ألا

تريد مُساعدتنا في أي أمر غير مُنتهي؟. « لا. « هل تريد أن تخبرنا بأي قصة أو أي شيء؟. « لا. « هل هناك ما تريد قصّه علينا؟. « لا. « هل تريد أن ترحَل؟. « لا. انعقد حاجبي الشيخ كرم بشدة وهو ينظر للجالسين أمامه بغير فهم، كرَّر سؤاله مرة أخرى لعل وعسى يستطيع تصحيح الأمور هذه المرة، سأل روح عادل بوضوح: هل تريد أن ترحَل؟. « لا. وكعادته، لم يستمِع موسى ولم يُنصِت سوى لرأسه، سأله بغضب: لماذا لا ترحَل؟ هل أنت قاتِل مُتسلسِل أصلًا؟ لقد طلبنا من هذا الدجَّال تحضير روح قاتِل مُتسلسِل. « أجل. ساد الصمت بعدها على الجميع، هل هو قاتل مُتسلسل فعلًا؟ يا إلهي! على الرغم من أن هذا طلبهم وهذا ما أرادوه لكن قلوبهم كادت تنخلِع بقوة حين سمعوا إجابته، لم يتوقعوا يومًا أن تتحقَّق أحلامهم أمام أعينهم، لكن هل كُل الأحلام يجب أن تتحقَّق؟ أم أن من مصلحة هذا العالم ألا تتحقَق كُل الأحلام والأماني؟

ضرب الشيخ على المنضدة بغضب وهو يسأل الروح: لماذا لا ترحَل؟. لم يعرف حينها أنه بهذه الضربة أثار غضب الروح، كان الصوت هذه المرة صدئًا يأتيهم من سقر وهو يقول: لابد لي من الانتقام منهم، لابد من قتلهم جميعًا كيلا ينكشِف السر. سأله الشيخ بدهشة: من هُم؟ وأي سر؟. أجابه الصوت بغضب شعر منه الحضور أنه على وشك الانفجار: القطط. ضحك موسى بصوتٍ عالٍ مليء بالسُخرية وهو يقول

لرأفت: هل رأيت ما أتيت به؟ يقول أنه سيقتل القطط كي لا تكشف سره! وكيف ستكشف القطط سرك أيها المُحتال؟ ستموء به للجميع؟. وجه حديثه الغاضِب نحو الشيخ دون أن يهتم بكبح جماح غضبه صارخًا: وأنت أيها المعتوه، هل ظننت أن هذا مُخيف؟ أمسكت نفسي عدة مرات كيلا أنفجِر ضحكًا، روايتك مُهلهلة ومليئة بالثغرات أيها الأحمق. حاولت زينب أن تُمسكه لكنه تملَّص منها وهو يحاول الهجوم على الشيخ لولا ضربة قوية قسمت المنضدة إلى نصفين دون أن يمسها أحدهم، شحب وجه موسى وكأنه رأى شبحًا لتوه، أيقن حينها أن الأمر تعدى قدراته هو شخصيًا، بل وربما يكون قد تعدى قدرات الشيخ كرم.

لكنه أدرك الأمر متأخرًا، بعد أن فات الأوان، شعر الجميع بالغُرفة تهتز من حولهم قبل أن يسمع الجميع صوت انفجار هائِل عقبَه أصوات تهدُّم وتهشُّم، غبار هائِل تطاير في الهواء ليغشي أبصارهم، خشى أشجعهم أن يتحرَّك قبل انقشاع الغبار ووضوح الرؤية، لكن ما كان في انتظارهم لم يكُن يتوقَّعه أحد..

تهشَّم الحائط المجاور لهم على شكل شخص، وكأن أحدهم اخترق الحائط هربًا من شيء ما، لكن المُخيف في الأمر أن أطراف هذا الشكل كانت محترقة تمامًا، وكأنه شيطان من نار

فر هاربًا..

النظرة التي سكنت عين الشيخ كانت كافية لتخبرهم أن الأمر جلل، لملم الشيخ أشيائه سريعًا وهو يكشف قطعة القماش عن وجه متولي الذي تثاءب في كسل وهو يعتدِل ويتلفَّت حوله قبل أن ينظر للحائط بفضول وهو يقول: أظن أن الأمر لم يسِر على ما يُرام. وقف الشيخ وهو يُمسِك بأشيائه في يد ويُمسِك بيده الأخرى يد متولى الذي ما زال يترنَّح كسلًا وهو يقول: الأمر بيدكُم الآن.. لن أتدخَّل في هذا الأمر ولو دفعتم لي مال قارون، عليكم أن تجدوا تلك الروح وتعرفوا السبب الذي جعلها عالقة وتصرفوها وإلا... نظر نحو الحائط وهو يبتلِع ريقه بصعوبة قبل أن ينظر إلى موسى قائلًا: وعليك أن تعرف يا هذا.. أن كُل ما سيحدث في رقبتك أنت، أنت المسؤول عن كُل شيء، فبسببك.. فُتِحَت بوابات الجحيم.

(4)

« هذا الرجل نصَّاب، وهذه هي وجهة نظري التي لن أغيِّرها أبدًا مهما حَدَث

كانت هذه هي الكلمات التي أنهى موسى مُكالمته التليفونية بعد أن رحلوا جميعًا من المطعم واتجهوا كُل إلى منزله، كان مُعتاد على الحديث مع رأفت لساعاتٍ مُتأخرةٍ من الليل، والليلة.. بعدما حَدَث في المطعم أمام أعينهم جميعًا، كان سببًا أهم وأدعى للحديث، لكن موسى كعادته هو الآخر كان عنيدًا، لا يُغيِّر رأيه أو قناعاته مهما حَدَث، لذا لم يحاول رأفت أبدًا أن يخوض معه نقاشًا حادًا، خصوصًا.. اليوم بالذات، ودَّعه وأنهى المُكالمة وهو يترك جسده يهوي إلى فراشه، لتستقبله المرتبة الناعمة وسط قطنها المُريح، وكأنها زوجة مُخلِصة تستقبِل زوجها المُنهَك بعد يوم طويل في العمل، ترك الألم ينساب من فقرات ظهره وعُنقه وهو يُغلِق عينيه قليلًا، لن ينام.. سيقوم.. فقط.. بإراحة.. عينيـ..

***

كان السلم مُظلِمًا، حاولت أن تضغط زر الإضاءة، لكن لا شيء، لم يُفتَح المصباح ليُبدِّد الظلام، هذه الليلة كان الظلام هو السيد، والخوف الذي بدأ يتسلَّل إلى قلبها هو خادمه

المُخلِص، سمعت صوت خطوات خافتة من خلفها، وقفت كي تسترِق السمع لكن الصوت توقَّف، حسنًا.. ربما كانت تتخيَّل، عليها ألا تفقِد أعصابها، لكن صوت الخطوات البطيئة تكرَّر، أسرعَت الخُطى وأسرعت الخُطى الخافتة من خلفها، تحوَّل الأمر لمُطاردة بلا صوت، كانت تتنفَّس بصعوبة، بسبب الخوف لا بسبب الجُهد المبذول في قفز درجات السلم المُجمَّعة، نظرت خلفها وهي تحاول أن ترى مُطاردها، لكنها لم تكُن تدري أنها بهذا ترتكِب أكثر الأخطاء التي من المُمكِن أن يقوم بها المرء وهو مُطارَد سذاجةً، لأنك لا تفقِد تركيزك فحسب، لكنك تفقِد تسديد خُطاك أيضًا.

وبالطبع حدَث ما لا تُحمَد عُقباه، أخطأت قدمها درجة السلم الصحيحة فتعثَّرت وسقطت أرضًا، من حُسن حظها أن جسدها لم ينهار وينزلق فوق درجات السلم وإلا لأصيبت بكدمات وجروح فوق قُدرتها على الاحتمال، سمعت صوت الخطوات يقترِب، نظرت في الظلام ورأته.. يقترِب منها، هل.. هل يرتدي قناع قط فوق رأسه؟ أم ترى الخوف قد اتفَق مع الظلام على الإطاحة بعقلها وسلامته؟ اعتدلت وهي تحاول الوقوف، نجحت بعد اضطرارها للاستناد على سور السلم، أمسكت به وهي تعدو للأعلى، الصوت يزداد من خلفها، وصلَت إلى باب شقتها، حاولت أن تُخرِج المفاتيح من حقيبتها، لكن الحقيبة مُزدحِمة، بدأت تُلقي بالأشياء الغير

ضرورية بعيدًا وهي تتنفَّس بصعوبة، تستمِع إلى صوت خطواته وهو يقترِب فيزداد توترها، وتأبي مفاتيحها أن تستسلِم وتخرج من مخبأها، بعد جُهد مُضن وجدتها، حاولت أن تجد المُفتاح المُناسِب لكن يديها المليئتين بالعرق تسببتا في سقوط المفاتيح، رأته يقترب وسط الظلام، أمسكت المفاتيح وهي تعرِف جيدًا أن لديها محاولة واحدة فحسب.

كانت يدها ترتعِد بشدة، رغم هذا تمكَّنت من إصابة هدفها في اللحظة الأخيرة، فتحت الباب بصعوبة وهي تُلقي بنفسها داخل الشقة، أغلقت الباب سريعًا وهي تستنِد عليه بظهرها وتنزلق وهي تنشج بعُنف وكأنها ركضت لتوها مئات الكيلومترات دون توقُّف، فتحت عينيها بعد أن سمعته.. سمعت صوتًا غريبًا من داخل الشقة، نظرت أمامها ورأتهم، عشرات القطط تقف أمامها وهي تموء بعُنف، ظهورها تلتوي وشعرها ينتصِب، غاضبة.. وخائفة، فكَّرت في فتح الباب لكنها تذكرت مُطاردها الغامِض، بدأ قلبها يدُق بعُنف، هيئ لها أنها لم تعُد تسمع موائهم من شدة ضربات قلبها، تقدموا إليها بخطوات بطيئة، تموء القطط ويفوِّت قلبها بعض الدقات، يؤلمها صدرها حين تسمَع طرقات مُطاردها على الباب، تكشف لها القطط عن أنيابها، تسمع مُطاردها يموء من خلف الباب بصوتٍ مُرعِب، القطط من أمامها تقف على اثنتين، تتحرك نحوها بخطواتٍ آلية مُرعِبة، تصرُخ.. لكن صوتها

يأبى الاستجابة لها، ترتجِف، يكاد قلبها يتوقَّف هلعًا وأول القطط يصل إليها، يبدأ في خمش جسدها بأظافره الحادة، تحاول أن تصرُخ وتصرُخ وتصرُخ لكن بلا جدوى.. تُطاردها القطط، تقفز فوقها وتخمشها، تعضها، تأكل قطعًا من جسدها، لا تعرف ماذا تفعل، كانت أضعف من أن تقاوم.. كانت أكثر خوفًا من أن تُفكِّر، أغلقت عينيها وصرخت.. هذه المرة كانت صرختها عاليةً تشُق الصمت شقًا..

شعر رأفت بألمٍ حادٍ في معدته، انقبضت عضلات بطنه بطريقة غريبة، شعور لم يشعُر بمثله من قبل، فتح عينيه بصعوبة، وكأن أطنان من الكسل مُعلَّقة بجفنيه، كان مصباح غُرفته مضيء، مما اضطره لإغلاق عينيه قليلًا لتتكيفا على الإضاءة أولًا، شعور الألم يخدِش معدته من الداخِل، لا يتوقَّف، حاول أن يفتح عينيه مرة أخرى، لكن هذه المرة رآها بوضوح.. خطوات أقدام قط دموية تُلوِّث حوائط غرفته، وكأن هذا القط نُقِع في بركة من الدماء قبل أن يُترَك هنا، كيف لم يشعُر به؟ كيف وصل القط إلى السقف؟

خطوات الأقدام مُمتدَّة على السقف بانتظام، وكأن هذا القط بإمكانه أن يسير على السقف مُتحديًا الجاذبية، تتبَّع أثر الخطوات متجاهلًا الألم الخادِش الذي يهتك معدته، إلى أن تلاقت أعينهما، هو والقط الدموي، كانت عينيه تلمعان

بوحشية على الرغم من الإضاءة، وجهه ملوَّث بالدماء وشاربه يقطرها، عينيه تلتمعان بجنونٍ مُطبَقٍ، كان مُنهمِكًا وهو يلوك قطعة لحم غريبة بين فكيه، اتسعت عينا رأفت حين أدرك أن هذا القط يقف فوقه، نظر إلى معدته فجأة لتصدمه الحقيقة المُرة..

كان هذا القط يقف بداخله – حرفيًا -، كان بطنه مشقوقًا وأمعائه مُمزَّقة، والقط مُنهمِك في أكل أجزاء منها في تلذُّذ، عَرِف الآن سبب الألم الذي يشعُر به، ماء القط بتلذُّذ وهو ينهش قطعة أخرى بأنيابه الحادة، قطعها وهو يلوكها أمام عينيه، وكأنه يتعمَّد أن يستفزَّه، حاول أن يصرُخ لكنه لم يجد صوته، وقتها فقط اكتشف الأمر، لقد أكل القط لسانه، لم يعُد الأمر قولًا مأثورًا، بل أصبَح حقيقة واقعية يعيشها رأفت، لم يجد لسانه، لم يصدَح صوته بالصراخ، اتسعت عيناه رُعبًا وهو يرى القط يبتلِع قطعة أخرى من أمعائه قبل أن يُقرِّر أن يتوقَّف عن الأكل، كان ينظر إلى عيني رأفت في تحدي، لم يكُن يخشاه، كان مجنونًا، كان شيطانًا ولم يكُن قطًا، فجأة.. قفز القط نحوه في وحشية، راقب القط وهو يطير في الهواء نحو وجهه قبل أن يهبط فوقه ويبدأ في عضه بوحشية، أغلَق عينيه بشدة وهو يجد صعوبة في التنفُّس..

لقد اقتربت النهاية.. وكانت مؤلمة بحق!

***

رن هاتفه في الوقت المُناسِب، استيقظ من نومه وهو يشهق بقوة، كانت عينيه مليئتين بالدموع، كان يبكي أثناء نومه من شدة الخوف، تقلَّب على فراشه وهو يمد يده في جيب بنطاله ليُخرِج هاتفه المحمول، كان موسى هو المُتصِل، أجاب المُكالمة وقبل أن ينبس ببنت شفة سَمِع صوت موسى المليء بالقلق وهو يقول: رأفت.. هذه مُكالمة جماعية وزينب معنا على الخط.. أخبرني.. هل رأيت كابوسًا أنت الآخر؟. ابتلع رأفت ريقه بصعوبة قبل أن يُبادِله سؤالًا بسؤال: كيف عرفت؟. سمع صوت زينب يأتيه من بعيد قليلًا وهي تقول بصوتٍ مُرتعِد: أنا أيضًا رأيت كابوسًا، كانوا يقفون على أقدامهم الخلفية، يريدون قتلي، عشرات القطط، وهناك مُطارِد بوجه.. بوجه قط، و... لم تقدِر على استكمال حديثها، انهارت في البكاء وهي تتنفَّس بصعوبة، حاول موسى أن يُهدئها بينما بدأ رأفت يتذكَّر كابوسه الوحشي بدوره وهو يقول: قط لعين.. شقّ بطني وأكل أمعائي.. الوغد ابن الـ... ناداه موسى ليُحذِّره من السُباب أمام زينب: رأفت.. أنت رأيت كابوسًا، وزينب رأت آخرًا. سألته زينب من بين دموعها: ماذا عنك يا موسى؟. ساد الصمت للحظات قبل أن يرتجِف

صوت موسى ويتهدَّج وهو يقول: أما أنا فأتتني رؤية!.
لطالما ادعى موسى أن بإمكانه رؤية بعض لمحات المُستقبل عن طريق رؤي يراها في أوقاتٍ عشوائيةٍ، ولطالما سخر منه الجميع، إلى أن بدأ يُخبرهم ببعض الأشياء التي كانت -ولدهشتهم- تتحقَّق فعلًا، لهذا أطلقوا عليه لقب أبو المكارم.

سأله رأفت بحذرٍ: ماذا رأيت؟. كان صوت تنفسه ثقيلًا، مما أخبرهم بأنه يجد مُعاناة في التحدُّث، تعثَّر بين الكلمات وهو يقُص عليهم رؤياه: كُنا نحن الثلاثة في المطعم، في غُرفة المكتب، جُثث نُزِعت منها الحياة، قتلى بوحشية غير طبيعية، كانت زينب مشقوقة نصفين بالعرض، نصفها العلوي كان يستنِد على الحائط أما السُفلى فمُلقى بإهمال تحت المكتب، وأنت مُعلَّق على الحائط بعد أن اخترق سكين ضخم جُمجمتك وثبتك إلى الحائط، وأنا.. أنا -على ما يبدو- كُنت أحاول الهرب قبل أن يتمكَّن مني القاتِل، كُنت على الأرض، وجهي للأسفل، وظهري به علامة خدش تُشبِه مخالب القط لكنها عملاقة، عملاقة للدرجة التي مزَّقت جسدي وكانت ضربة واحدة كفيلة بطرحي على الأرض قتيلًا، في وسط الغُرفة وقف شخص عرفت هويته جيدًا دون أن أسأله عن اسمه، ورغم أنها المرة الأولى التي أراه فيها، كان عادِل.. كان هو المسؤول عن قتلنا بهذه الوحشية.
سأله رأفت بخوفٍ: ماذا تقصد؟. قال موسى بصعوبة: أقصد

أننا لو لم نتحرَّك سريعًا ونمنع الأمر من التفاقُم، ستنتهي حياتنا على يد روح عادل الغاضبة. قالت زينب: لربما كانت كابوسًا وليست رؤية؟. صمت موسى قليلًا قبل أن يقول: لدي دليل على أنها رؤية.. وحقيقية تمامًا. سألاه في صوتٍ واحدٍ: وما هو؟. قال وهو يجد صعوبة في التنفُّس: افتحوا أبواب منازلكم!. ودون تفكير اندفعا بخطوات سريعة نحو بابي منازلهما، فتحه رأفت دون تردُّد بينما تردَّدت زينب للحظة، لكنهما – تقريبًا – فتحاهما في آنٍ واحدٍ، ليجدا في انتظارهما مشهدًا لن ينساه أي منهما طوال حياته، مشهدًا سيسكُن كوابيسهما ويُطارِد أحلامهما طوال الفترة الباقية من حياتهما..

مُعلَّقة على أبوابهم قطط مذبوحة، منحورة العنق تمامًا، تسيل دمائها لتلوِّث الأرضيات، وبخطٍ كبيرٍ كُتِبت كلمات خُطَّت بالدماء: أنتَ التالي. صرخت زينب وهي ترى القط المذبوح المُعلَّف إلى مقبض باب شقتها من الخارج، بينما شهق رأفت بفزع وهو يتراجَع للخلف، سمع كلاهما صوت موسى يقول عبر أثير الهاتف: لو لم نُسرِع في إيجاد حل، سنكون التاليين. وأنهى المُكالمة دون أن يسمَع رد أيهما.

(5)

كان موسى يزرع الغُرفة ذهابًا ومجيئًا دون توقُّف، بينما جلست زينب في ركن الغُرفة تُمسِك بيدها هاتفها المحمول وهي مُنهمِكة في البحث عن شيء ما، بينما حاسوبها المحمول مفتوح وتعرض شاشته أحد المُتصفِحات والعديد من المواقِع التي وصلَت إليها عن طريق مُحرِك بحث شهير، أما رأفت فكان مشغولًا في مُكالمة هاتفية بدت وكأنها تحتضِر في دقائِقها الأخيرة، أنهى مُكالمته وهو ينظر لموسى الذي لم يتوقَّف عن هذا الفِعل الموتِّر للأعصاب وهو يقول: هل لك أن تتوقَّف؟. حدجَه موسى بنظرة حادة مليئة بالغضب، فتابَع رأفت مُتداركًا موقفه: من فضلَك؟. توقف موسى وهو ينظر للفتحة التي أحضر رأفت بعض العُمال لتغطيتها بسُرعة قبل أن ينتبه لها أحد الجيران، الذي تساءلوا بالفعل عن سبب هذا الثُقب وعن مصدر الصوت العالي الشبيه بالانفجار الذي سمعه الجميع في هذه الليلة، اضطرّ رأفت أن يكذب عليهم ويقول أن إحدى إسطوانات الغاز المُستخدمة في المطعم انفجرت بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وصدقه الجميع.. كان انفجار أنابيب الغاز في المطاعم أمرًا شبه مُعتادًا، وكان التبرير الذي ساقه رأفت للجميع مُقنعًا لدرجةٍ كبيرةٍ، كان العُمال قد أغلقوا الفتحة

بالطوب الأحمر فحسب، على وعدٍ بإحضار عمال آخرون لتمحير الحائط ودهانه، نظر موسى لرأفت مُتشككًا وهو يقول: أكاد أقسِم أن الأمر غير منطقي، أشعر أن لهذا الشيخ المأفون يدًا فيما حدث. لم يشعر رأفت برغبته في خوض هذا الجدال مرةً أخرى، منذ غادرهم الشيخ وموسى يُصرِح بمثل تلك الأفكار الحمقاء دون توقُّف، تجاهله وهو يهز رأسه بعد اقتناع، نظر لزينب وهو يسألها: هل وصلتِ لأي شيء؟. تنحنحت وهي تقول في خوفٍ وارتباكٍ: وجدت شقة في محافظة بورسعيد، يقولون أن قاطنها كان يحاول تسخير أحد الجان، حين خرجت الأمور عن السيطرة، فأحرق الجان الشقة بأكملها على قاطنها قبل أن يهدم جدارًا في طريقه للخروج، لكن لم أجد شيئًا آخرًا. قال موسى مُعترِضًا: لكن الأمر ها هنا مُختلِف تمامًا، فنحن لم نحاوِل تسخير أي جان، لكنها كانت جلسة تحضير أرواح، كما أن الروح انصرفت دون أن تحرق الشقة ونحن بداخلها. تدخَّل رأفت في غضبٍ حاول أن يخفيه وهو يقول بتوتُّر:

هناك الكثير من الأمور المُختلِفة يا موسى، نحن لا نبحَث عن شيء مُطابِق لما حدث، نحن نحاوِل فهم ما حدث، لنعرِف بعدها كيف سنتصرَّف وماذا سنفعل، خصوصًا بعد أن تركنا الشيخ كرم وفرّ هاربًا هو وصبيه، ورفضه لمُساعدتنا أو حتى التدخُّل في الأمر. بَصَق موسى أرضًا وهو يقول في اشمئزاز:

ضعيف وجبان. سألتهم زينب في توتُّر: والعمل؟. أمسك رأفت رأسه وهو يقول بصوتٍ خافتٍ وكأنه يُخاطِب نفسه: علينا أن نُركِّز قليلًا. قال موسى بغضب: كُل شيء بدأ في تلك الجلسة اللعينة. لمعت عينا رأفت وهو يشير إليه صائحًا: أنت عبقري يا صديقي، الجلسة.. كُل شيء كان موجودًا في الجلسة، كما سببت لنا هذه الجلسة هذا المأزق، ستكون هي نفسها سبيل هروبنا منها. انعقدَ حاجبي موسى وهو يقول: لا أفهم أي شيء!. بينما صاحت زينب في حماس: كيف لم ننتبِه للأمر سوى الآن؟ الجلسة وما دار بها هما كلمة السر للنجاة من كُل شيء. قال موسى بغضب: ما زلت لا أفهم شيئًا. نظر رأفت لزينب وهو يقول بحماس يفوق الحماس الذي تشعُر به وهو يقول: علينا أن نهدأ، وأن نسترجِع كُل ما دار في تلك الجلسة، علينا أن نجد شيئًا أو دليلًا يُساعدنا في الوصول لتلك الروح، أو بمعنى أصح... تولَّت زينب منه دفة الأمور وهي تستكمِل حديثه قائلةً: أن نصل للشخص صاحِب الروح، علينا أن نعرف لماذا مات؟ وماذا كان يفعل قبل وفاته؟ والأهم.. أن نعرف ونفهم جيدًا السبب الذي جعل روحه غاضبةً بهذا الشكل؟ ولماذا رفضت الروح الاستسلام والرحيل!. صاح موسى بغضب وهو يرفع حاجبيه للأعلى: هل يهتَم أحدكما أن يشرح لي ما يحدُث؟. ابتسم رأفت وهو يربت على كتفه قائلًا: علينا أن نحاول جمع بعض

المعلومات من الجلسة، ومن ثم سأشرح لك خطواتنا التالية خطوة بخطوة. جلسوا جميعًا حول المنضدة للمرة الثانية، لكن هذه المرة لم يكُن متولي أو الشيخ كرم ضيوفًا في جلستهم، وإنما كان الخوف والتوتُّر حاضرين بدلًا منهم، قال رأفت وهو يُمسِك بورقة فارغة وقلم وهو على أتم استعداد لتدنيس بياض الورقة بالحبر الأزرق قائلًا: فكِّروا.. ماذا نعرف عنه؟. قالت زينب: اسمه عادل. قال رأفت مُثنيًا على زينب: بداية جيدة للغاية. تابع موسى وقد تذكَّر شيئًا هامًا: صعيدي، من قرية وليس مدينة أو محافظة. سجَّل رأفت ما باح به موسى لتوه قبل أن يتبادل الثلاثة الأنظار إلى بعضهم البعض، كان كل منهم يبحث آملًا عن معلومات في حوزة الآخر، لكن أحدهم لم يملُك ما يريح بال الباقين، شعر رأفت بخيبة الأمل وهو يضع القلم جانبًا، نكَّس موسى رأسه للأرض في يأسٍ وهو يقول: والعمل؟. قالت زينب: البحث عن شخص من قرى الصعيد يُدعى عادل، يُشبه البحث عن إبرة في كوم قش، إن لم يكُن أكثر صعوبةً. زفر رأفت في غضب وهو يقول: كانت فكرة نجيبة، لكنها لم تصل بنا إلى أي شيء، وأدت الأمل في مهده وسمحت لليأس أن يسيطر على كُل شيء. قال موسى بيأسٍ: إذا لنترك كُل شيء، كُل ما هو مقدَّر سيحدُث. قالت زينب بخوف: من واقِع خبرتنا في مُشاهدة أفلام الرعب وقراءة الروايات المُخيفة، تعرفان جيدًا أن تلك

الروح لن تتركنا وشأننا. صاح موسى بغضبٍ وهو يضرب المنضدة بقبضته: كفاكِ هراءً، تعرفين جيدًا أن الواقع دائمًا ما يختلِف عن تلك الخرافات وهذه العوالم الخيالية. تنحنح رأفت فجذب الأنظار إليه وهو يقول بهدوء شابه الكثير من الخوف: في الحقيقة.. زينب مُحِقّة. انعقد حاجبا موسى في عدم فهمٍ وهو يقول: ماذا تقصد؟. تنهَّد رأفت وهو يقول: أقصد أننا إن لم نجد حلًا لتلك المُعضِلة، ستُنهي تلك الروح الغاضبة ما أتت من أجله، ومن ثمّ ستكرِّس كامل جهودها للانتقام منّا. اتسعَت عينا موسى خوفًا وقد فَهِم ما يرنو إليه رأفت، عرف جيدًا أنه ليس بإمكان أحدهم مقاومة تلك الروح أو ردء شرها، نظر لمكان الثقب الموجود في الحائط والذي تم رتقه بطوبٍ أحمرٍ وهو يبتلِع ريقه بصعوبة مُردّدًا: استر يا رب!. فجأة وقفت زينب وهي تقول بحماسٍ مُبالَغ فيه وبصوتٍ عالٍ: وجدتها!. وقف كلاهما وهما ينظران إليها في دهشة، ابتسمت للحظة قبل أن تقول: حسنين!. « تحت أمر معاليك يا فندم. نَطَق بهذه الكلمات في توتُّر وهو يقف باحترامٍ لن يراه مُحدِثَه ذو الرتبة العالية، التي يستقِر فيها نسر وبجواره نجمتين على كتفيه بشموخٍ لا يقدِر أحدهم على تحديه، وعلى الرغم من أنه كان بإمكانه أن يُخاطِب مُحدثه السيد العقيد عبد الرحمن الشامي وهو جالِس على مقعده دون أن يبدي احترامًا أو اهتمامًا، إلا أنه اختار –

وبرضا نفسٍ بالغٍ – أن يقف له احترامًا، إجلالًا، وتقديرًا..

أنهى المُكالمة وهو يضع هاتفه المحمول على المكتب وسط الأوراق، سأله زميل له يجلس على مكتبٍ مُتهالِكٍ بدوره: ماذا يُريد؟. قال وهو يبحث عن شيء ما في أحد أدراج المكتب الذي فُتِح بصعوبة وكأنه على وشك التحطُّم: سيُرسِل الضابِط أندرو من أجل الحصول على بضع ملفات هامة تخص قضية اغتيال المُفكِّر علاء اليماني، يقول أنهم أمسكوا بشخصٍ جديدٍ يشبهون في اضطلاعه في جريمة الاغتيال لكن يحتاجون لبعض الملفات من أجل شيء لا أعلمه. سأله زميله وهو مُنهمِك بدوره في تصفُّح مجموعة من الملفات، بحثًا عن أوراق مطلوبة في جهة ما: لماذا لم تسأله؟.

(6)

توقَّف عن البحث في الدرج وهو يرفَع رأسه للأعلى، حدَّق نحو زميله للحظة قبل أن يمط شفته وهو يعود لاستكمال بحثه دون اهتمام يُذكَر: لم أملك من الجرأة ما يكفي لسؤاله. ابتسم زميله شبح ابتسامة باهتة لم تدُم للحظات، أغلق الملف الذي يُمسِك به بين يديه وهو يضعه جانبًا ليتربَّع فوق كومة ملفات مُصطفة بإهمال فوق مكتبه ويُمسِك بملفٍ جديدٍ، انعقد حاجبيه في عُنف وهو يسمع صراع زميله مع أدراج مكتبه القديم، رفع رأسه وهو يقول: حسنين؟ علام تبحَث؟. قال حسنين دون أن ينظر إليه: القداحة!. ضحك زميله بصوتٍ عالٍ، لم يفهم حسنين سبب ضحكه، حدقه بنظرة غاضبةٍ وهو يسأله: لماذا تضحك يا حلمي؟. أشار إليه حلمي وهو يقول: لأن القداحة في جيب قميصك يا صديقي!. نظر حسنين ببطء إلى جيب قميصه ليجد القداحة تستقِر بداخله، ابتسم بإحراج وهو يُمسِك بها ويُشعلها بتوتُّر محاولًا أن يتغلَّب على شعوره بالخجل، قال حلمي وهو يغمز بعينه: أما زلت تفكِّر بها؟. شعر حسنين بوجهه يحمر خجلًا، قرَّر أن يغيِّر دفة الحديث متسائلًا بجديةٍ: ألم يخبرك أي شخص أنك تُشبه الضُفدع حين تغمز بهذه الطريقة؟. قهقه زميله وقد عَلِمَ ما يحاول حسنين

فعله فقال: أخبروني كثيرًا، كما أخبروني أنك تفكِّر فيها دون انقطاع. ابتسم حسنين مرة أخرى وهو يتحرَّك نحو ركن الغرفة متسائلًا دون أن ينظر إلى زميله: هل تريد قهوة؟. قال زميله بحماس وهو يعود لمراجعة الملف المفتوح أمامه: ومن ذا الذي يقول للقهوة لا؟. انهمك حسنين في صنع فنجانين من القهوة على نيران هادئة لـ سبرتاية قديمة صدئة وهو يتأمَّل المكان من حوله، منذ تخرُّجه وهو حبيس هذا القبو الكئيب، لكن في منصبٍ يحسده عليه الكثيرون من زملائه، خصوصًا من يعرف منهم بوجود هذا المكان، قبو مُظلِم في فيلا قديمة شبه مهجورة في منطقة المعادي، أغصان أشجار حديقتها الأمامية مُتشابكة في صراع حميمي، الفيلا مُظلمة مهجورة أمام الجميع، لكن في قبوها يأتي يوميًا زوجًا من الموظفين ليُمارسا مهام عملهما الحكومي، حسنين الزيَّات وحلمي الشبراويشي، موظفا الأرشيف في قبو كئيب يحتفظ بين جنباته بآلاف الملفات والأوراق الرسمية التابعة لوزارة الداخلية المصرية.

وظيفتهما سهلة ومُمتعة للغاية، تكمن سهولتها في كونهما يحفظان تصنيفات هذه الملفات عن ظهر قلب، ففي نهاية القبو ملفات القضايا السياسية، عن يمينها قضايا التخابر، وقبلها القضايا الخاصة بالرياضة، في منتصف القبو قضايا القتلة والسفاحين، وهكذا.. إلى نهاية التصنيفات، أما مُتعتها

البالِغة تكمُن في كونهما يقضيان أغلب وقتيهما في النظر إلى الملفات وقراءة هذه القضايا، كان حسنين يهوى القراءة من صغره، وكانت سلسلته المُفضلة هي سلسلة الأرشيف.. تلك السلسلة التي أصدرها وأشرف عليها الصحفي الكبير سالم منصور عبد الرحمن، لم يُصدِّق نفسه حين أتته تلك الفرصة ليُشرِف على أرشيف وزارة الداخلية بأكمله، وليس مُجرَّد أرشيف صحيفة أسبوعية مثل سالِم.

كانت وظيفته سرية، لم يخبر بحقيقتها سوى أمه وأبيه فحسب، مات والده قبل أن يُفشي سره، لكن والدته - أطال الله في عُمرها - فلم تُخبِر سوى خالتها وابنتها زينب فقط، وبضع نساء من الشارع، وعم حمادة البقال، وإبراهيم السبّاك، وعم عيده بائع السمك، لكن الأمر لا يزال تحت السيطرة، لم يتجاوز عدد الأشخاص الذين يعرفون بأمر وظيفته المليون نسمة بعدا!

حسنين كان يُقدِّس وظيفته، كان هذا القبو محرابًا يحترمه ويُجلّه، يُحب هذه الملفات حبًا جمًا، مثلما يُحبها، كان قد صارَح حلمي بكُل شيء، قص عليه ملاحم ومُعلّقات عن زينب الراعي ابنة خالته وجمالها الذي لا يوجد له مثيل في الكون بأكمله، زينب التي طالما هربت منه وتجنبته وكأنه مريض طاعون أجرَب، صارحها بحُبه كثيرًا لكنها دائمًا ما

كانت تتهرَّب منه، حاول لفت نظرها لكنها لم تهتَم بشكلٍ كافٍ، لطالما اتصل بها وتجاهلت مُكالماته، لطالما أرسل لها رسائل نصية دون أن تجيبه، كان يُحب زينب حبًا جمًا، بينما تتهرَّب منه هي بكُل ما أوتيت من قوة، لذلك يحاول حلمي دائمًا أن يثير غيظه بتلك الأمور.

أفاق من أفكاره على صوت القهوة التي استغلت غرقه بين أمواج فِكره لتفور خارج الكنكة النحاسية، أمسك بها سريعًا وهو يصبها في فنجانين نظيفين صغيرين، حملهما بحرصٍ بالغٍ وهو يضع أحدهما على مكتب زميله بحذر بعيدًا عن الملفات كيلا تلوثها القهوة ولو عن طريق الخطأ، بينما حَمَل الآخر مُتجهًا إلى مكتبه، وضعه فوق المكتب وجذب المقعد الخشبي وهو يستعِد للجلوس، سأله زميله قبل أن يرشف رشفته الأولى: ألن تقوم بتحضير الملفات التي طلبها سيادة العقيد؟. قال حسنين مُبتسمًا: أعرف مكان كُل شيء، أحفظ مكان كُل ورقة وكُل ملف في هذا المكان، لن أستغرِق بضع ثواني حين أسمع سيارة الضابط أندرو تقف بالخارج، وحين يصل إلى هنا سيجد كُل شيء في انتظاره. رشف حلمي رشفته وعلامات الاستمتاع تبدو على وجهه وهو يقول: حسنًا يا صديقي، سلمت يداك. سمع كلاهما هاتف قديم يرن، كان حسنين يكره التكنولوجيا للغاية، يُقدِّس الطرق القديمة في التعامُل، يكره الهواتف والأصوات المعدنية التي يحملها

أثيرها لتُساهِم في توسيع المسافات بين الناس وبعضهم البعض، يُحب الخطابات ويرى أن جُملة مكتوبة بخط اليد تساوي ألف ألف دقيقة هاتف، لهذا يحمل هاتفًا قديمًا دون كاميرا أو اتصال بالإنترنت، بحث عن هاتفه بين الملفات بتوتُّر، يخشى أن يكون المُتصِل هامًا أو يحمل فوق كتفيه رتبة كبيرة، لأنهم يكرهون الانتظار ويرونه مُهينًا لهم!

وجد هاتفه ونظر إلى الشاشة قليلًا قبل أن ينعقِد حاجبيه بقوة، لاحظ زميله التغيُّر القوي الذي ظهر على وجهه فسأله: ما الأمر؟. دون أن يجيبه حرَّك شاشة الهاتف الصغيرة نحو صديقه ليُطالع الاسم المكتوب على الشاشة أمامه قبل أن يرتفِع حاجبيه بدهشةٍ بالغةٍ

فأمام عينيهما كانت الشاشة تكشف لهما عن آخر شخص يُمكِن أن يتوقعا منه اتصالًا.. زينب الراعي!

(7)

في كازينو قديم جَلَسَ وطّفّق ينتظرها، لم تُحدثه منذ أمدٍ بعيدٍ، لذا لم يُصدّق نفسه حين رأي رقمها يظهر أمامه، وهاتفه القديم يهتز فرحًا وهو يُصدِر صوتًا مشوّهًا بقليلٍ من التركيز ستعرِف أنها نغمات أغنية أجمل إحساس في الكون لمُطربته المُفضَّلة أليسا، لطالما تجاهلت الإشارات التي كان يُرسلها، تجاهلت التلميحات التي كان يُصرِّح بها، فاتجه لأسلوب مُختلِف تمامًا عن طبيعته التي خُلِق بها، لم يكُن مرتاحًا، كان يشعُر وكأنه يخون نفسه وذاته مع نفس جديدة، لكنه فعلها عن طيب خاطِر من أجلها، صارحها بحُبه بصراحةٍ في أحد الأعياد، حيث تجمَّعَت العائلة بأكملها عند جدتهما في صباح أول أيام العيد، ابتسمت في خجل وهي تُخبره أنها أيضًا تُحبه، لم تكن ابتسامته قد اكتملَت حين بادرته بضربة قاضية تفوق ضربات محمد علي كلاي قوة وصرامة، حين قالت أنها تُحبه مثل شقيقها تمامًا.

من بعدها وهي تزور جدتها في أوانٍ مُختلِفٍ، سأل عنها والدتها فارتبكت واحمرّ وجهها وهي تخبره أنها مشغولة في إدارة المطعم مع زميليها، شعر بالغيرة والغضب في آنٍ واحدٍ، سأل أمها في غضبٍ عارمٍ عن السبب الذي سمح لها أن تشارك رجلين غرباء عنها في مشروع كهذا؟ شعرت خالته

بالغضب، أحسَّت أنه يقلِّل من قيمة تربيتها لابنتها، ثارت في وجهه غضبًا وهي تخبره أنها ربَّت ابنتها أحسن تربية، وأنها لن تسمح له أو لغيره أن يُشكِّك فيها أو في ابنتها، لم يعلم لماذا حمَّلَت خالته الأمور فوق طاقتها، ظل عدة شهور مُقتنِع أنه ربما أساء الأدب في حضرتها دون أن يقصد، لكنه اكتشَف أنها ثارت في وجهه بسبب خلاف بين والدته وبينها بسبب جمعية دخلتاها سويًا واختلفتا على الأدوار وترتيبها.

بعدما اطمأن قلبه أن لم يكُن سببًا لغضب خالته، عاد مرة أخرى لمحاولات التودُّد إلى زينب، نصحه حلمي زميله في العمل مرارًا وتكرارًا أن يتركها لحال سبيلها طالما أنها لا تُبادِله هذا الحُب، لكنه كان مُصرًا، يرى أن المُحب اللحوح خير من المُحب الخجول، وأن من يُصِر على ما يريد يحظى به في النهاية، لم ير يومًا أنه غريب الأطوار مثلما أخبرته زينب في مرة، بل زاده الأمر إصرارًا، كان مُقتنِعًا تمامًا أنها ستكون له يومًا، وحينها ستُقدِّر له تمسكه بها وإصراره عليها، لهذا لم يترك لليأس ثغرة يتسلَّل منها إلى قلبه أبدًا.

أفاق من أفكاره التي كانت تثور بداخله كبركانٍ ثائرٍ حين رآها، كانت تتهادي نحوه في خطواتٍ رقيقةٍ، وكأنها بُعِثت من عشق لتذيب قلبه، عدَّل من ملابسه سريعًا وهو يربت على شعره بخفة ليتأكَّد أنه مُصفَّف بعناية لا بأس بها، وقف

في استقبالها وهو يتأملها بأعين تهيم بها حبًا، تحرَّك نحوها خطوة وهو يمد يده ليستقبلها، صافحته في رقة وهي تبتسِم، ذاب قلبه من كثرة المشاعر المُختلجة بداخله وهو يُراقِب ابتسامتها، كاد أن يقرص نفسه ليتأكَّد أنها تبتسِم له، لكنه خاف أن يبدو أمامها كالأبله فتراجَع عن الفكرة، جذب لها المقعد لتجلس، انتظرها حتى جلست قبل أن يُعدِّل من وضعه ليتأكَّد أنها تشعر بالراحة، بخطواتٍ سريعة تحرَّك ليجلس في المقعد المُقابِل لها وهو يبادلها الابتسام.

بعد لحظة من الصمت المُربِك قرَّر أن يستجمع شجاعته ويقول بصوتٍ مُتهدِّج من كثرة العشق: لم أصدِّق نفسي حين هاتفتني!. اتسعت ابتسامتها وهي تقول: ألا يحق للفتاة أن تُقابِل ابن خالتها المُفضَّل؟. حسنًا.. حاول أن يهدأ، كانت مشاعره تجيش بداخله الآن وتكاد تفيض من كثرتها، لكنه تماسَك وهو يقول: يحق للفتاة أن تفعل ما تشاء وقتما تشاء. صمت قليلًا قبل أن يضيف بصوتٍ خافتٍ يُغلِّفه الخجل: خصوصًا لو كانت جميلة مثلكِ. توقَّع أن تُقابِل مُغازلته بقليلٍ من الجفاء أو كثيرٍ من التجاهُل، لكنها ابتسمت ووجنتيها تحمرَّان خجلًا قبل أن تنظر للأرض، بدأ قلبه يدُق بقوة حتى أنه خشي أن تسمع دقاته وتعرِف ما يختلِج بداخله، تنفَّس بهدوء وهو يتأملها، كانت مثالًا للرقة البالغة، للجمال الذي لا يعرف حدودًا، كان يعرف يقينًا أنها لو عاشت في

أزمنة الإغريق لنصبوها إلهة للجمال بدلًا من فينوس، رفعت رأسها ببطء والحمرة لم تتخلى عن وجنتيها بعد وهي تنظر في عينيه قائلةً: أحتاج لخدمة مُهِمة، ولم أجد خيرًا منك ليُساعدني. في الحقيقة لم يكُن مُهتمًا أبدًا بسبب لقائهما، كان يكفيه أن يراها وينظر في عينيها، ليذهَب العالم إلى الجحيم، فهو ذاهب إلى جنة عينيها، ابتسم وهو يقول بغير تركيز: أي خدمة؟. كان تائهًا في عوالم من عشق سكنت عينيها وهي تقول: أنت تعرف أنني دائمًا ما كُنت مُتهمَّة بعوالم الرعب والغموض، الماورائيات والغرائِب. قال دون أن يرفع عينيه عن عينيها: أعرف هذا جيدًا. ابتسمت وهي تُضيف: قرَّرت أن أغيِّر مقعدي، سأتنحى عن منصبي كقارئة ومُطالِعة لهذه الأمور، وسأتحوَّل لمُغامِرة، قرَّرت أن أسبر أغوار هذه العوالم، قرَّرت أن أبدأ في كتابة روايتي الأولي. اتسعت عينيه بغير تصديق وحاجبيه يرتفعان للأعلى، دام هذا الوضع للحظات قبل أن يبتسم وهو يقول بتشجيع: مبارك عليكي يا زينب. تحرَّكت يده بتلقائية لتحتضن يدها، توقَّع أن تبتعِد عنه، ربما تصرخ به أو تسبَّه، توقَّع أن تنظر له باشمئزاز، لكنها نظرت للأرض خجلًا مرة أخرى دون أن تُحرِّك ساكنًا وتركت يدها تستريح في يده، شعر بقلبه ينتفِض بين ضلوعه وهو لا يُصدِّق ما يحدُث، رفعت رأسها لتُطالعه بأعين يتراقص فيها الخجل وهي تقول: لهذا أحتاج مُساعدتك. قال مُبتسِمًا: وأنا

تحت أمرك في كُل شيء وفي أي شيء. قالت وهي تبادله الابتسامة: اتجهت لكتابة الرواية مؤخرًا، وفوجئت أن عدد الكُتَّاب في مصر فاق التوقعات، في حد ذاتها.. هذه ظاهرة صحية وإيجابية للغاية، لكنها موتِّرة ومُقلِقة، خصوصًا.. لكاتبة مُبتدئة تبدأ في سطر أول فصول روايتها الأولى، ما زالت لا تمتلِك الخبرة الكافية لتُثبت ذاتها في هذا الوسط، لذا قرَّرت أن أقوم ببعض البحث، ولن تصدِّق ما وجدت. قال وقد بدأ الفضول يملأه: ماذا وجدتِ؟. « يميل القُراء للبحث عن الرعب الحقيقي، يحبون الأشياء التي حدثت في عالمنا ويبحثون عنها، يفضلونها عن الرعب الخيالي الذي لا يمُت للواقع بصِلة، قرَّرت أن أبحث عمّا يفتقده القُرّاء في هذا المجال، ووجدت أن عدد الروايات التي تتحدَّث عن القتلة المُتسلسلين قليل للغاية، لذا قرَّرت أن أكتب روايتي الأولى عن قاتل متسلسل مصري حقيقي تمامًا، وفكرت كثيرًا.. من الوحيد في مصر بأكملها الذي يستطيع مُساعدتي؟. شعر بالفخر يملأه والزهو يتدفَّق بداخله، قال وهو يفرد صدره مزهوًا بنفسه: أنا الوحيد، ملفات وأرشيف وزارة الداخلية، كامل مجرميها وقتلتها المُتسلسلين، المعروفين منهم والمجهولين.. هنا. أنهى جُملته وهو يشير إلى رأسه في إشارة واضحة أنه يحفظ هذا الأرشيف عن ظهر قلب، وكانت هي تعرف هذا جيدًا، سألها بعدما أنهى جُملته: إلام

تحتاجين؟. ظهرت عليها علامات التفكير وهي تتأمَّل النيل القريب منها قبل أن تقول: أريد أن أكتب عن قاتل مُتسلسل من الريف المصري، أو من الصعيد، أريد أن تكون مُغامرة حامية الوطيس. قال وهو يحتضن يدها بين يديه: هناك الكثير من القتلة المُتسلسلين ظهروا في صعيد مصر في الفترات الأخيرة. ابتسمت وهي تقول: أحتاج لشخص كانت له علاقة بالحيوانات الأليفة، أريد أن تحمل روايتي رسالةً، أريد أن ألفت أنظار القراء لأهمية الرفق بالحيوان، هل استعان أي قاتِل منهم بأي حيوانات أثناء ارتكابه لجرائمه؟. فكَّر قليلًا قبل أن يقول: لا، ليس على حد علمي، لم يستعمِل أي قاتل منهم أي نوع من الحيوانات. صمت قليلًا قبل أن تلتمِع عينيه وهو يقول: عادل ممدوح، قاتِل القطط. رفعت حاجبيها وهي تقول: عادل ممدوح؟ هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم!. قال وهو فخور بنفسه: هذا لأن هذه القضية محظور نشرها، لن تجدي عنها أي أخبار في أي مكان، خافوا وقتما حدثت أن تثور جمعيات الرفق بالحيوان وأن يصل الأمر للجمعيات العالمية وأن تحدث مشاكل بسبب قتله المُستمِر للقطط. فكَّرت قليلًا قبل أن تقول بخيبة أمل: أحتاج لمزيد من المعلومات عن هذه القضية تحديدًا.. كيف لي أن أجد المزيد؟. ابتسم وهو يقول: ربما لا تحتوي الملفات التي أمتلكها في الأرشيف على كثير من المعلومات، لكنها

تحتوي على الأقل على بداية الخيط. ضغطت يده في لين وهي تقول بغنج: وهل يمكنني الحصول على طرف الخيط؟. قال وهو يحتضن يدها برفقٍ: قرية صغيرة من قُرى صعيد مصر.. بإمكاني أن أعطيك اسم القرية الآن، وسيتحتَّم عليكِ بعدئذ أن تنتظري يوم أجازتي لنزورها سويًا ونسأل أهلها عن بقية المعلومات. ابتسمت وهي تقول: موافقة. استمرت جلستهما لنصف ساعة أخرى تحدثا فيها عن جدتهما وعن العلاقة التي توتَّرت مؤخرًا بين والدته ووالدتها، فكَّرا في الكيفية التي سيوثقون بها أطر الود مرة أخرى، ودعها ووقف في انتظار أن يطمئِن عليها إلى أن وصلت سيارة الأجرة التي طلبتها عن طريق تطبيق غريب في هاتفها المحمول، لم يُعجبه أن تركب سيارة خاصة مع شاب وسيم، لكنه خاف أن يُفصِح عن مكنونات صدره، قرَّر أن يحدثها في هذا الأمر مرة أخرى، ليس الآن على أي حال..

أغلق باب السيارة بعد أن ركبت وودعها، أخرجت هاتفها من حقيبتها وهي تتصل برقم اختارته من بين قائمة الأسماء، انتظرت إلى أن رد عليها مُحدثها لتقول: حصلت على اسم القرية، سنُسافِر إلى الصعيد غدًا، جهزا حقائبكما. وضعت هاتفها في حقيبتها وهي تُخرج عبوة صغيرة من الجيل المُطهِّر وتغسل به يدها سريعًا، لم تكُن تتحمَّل فكرة أنه كان يُمسِك بيدها منذ لحظات قليلة!

(8)

قرية مصرية صغيرة تابِعة لإحدى مُحافظات الصعيد، وعلى الرغم من صِغَر مساحتها وقلة عدد سُكَّانِها، إلا أنها واحدة من أشهَر القُرى في العالم، والحقيقة أن شُهرتها العالمية تفوق شُهرتها المحليَّة، ويرجِع سبب هذا إلى عدم اهتمام الناس – حتى قاطنيها – لسبب شُهرتها، وعدم محاولتهم الاستفادة من الأمر لا ماديًا ولا معنويًا، والسبب في هذا الأمر يرجع إلى إهمالهم أو تكاسلهم – لا سَمَح الله – وإنما يرجع إلى كونهم مُجرَّد تروس مطحونة في ماكينة كبيرة ضخمة تسعى طوال الوقت لشيءٍ واحِدٍ.. لُقمة العيش.

منذ عدة سنوات أرسَل أحد قاطنيها إلى موسوعة جينيس العالمية، الموسوعة المُختصَّة بالأرقام القياسية، وطلب منهم إرسال وفد رسمي تابع لهم كي يتأكَّد بنفسه من معلومة هامة، ألا وهي أن تلك القرية بها أكبر عدد توائم في العالم، وهذه كانت حقيقة.

الرقم القياسي السابِق كان ملكًا لقرية أوكرانية تُدعى فيليكايا كوبانيا المشهورة عالميًا بأرض التوائِم، يعيش على أرض هذه القرية 122 توأمًا من الذكور والإناث، وهذا رقمًا مُذهلًا ويستحِق أن يُسجَّل في موسوعة جينيس، لكن القرية المصرية الشهيرة بـ كوم التوم نظرًا لطريقة أهلها

الريفيين في نطق كلمة توأم واستبدالها بلفظة توم طبقًا للإحصاء التي قامَت به موسوعة جينيس يعيش على أرضها في الوقت الحالي 182 توأمًا، بما يزيد عن 60 توأمًا عن أرض التوائِم الأوكرانية، وبهذا خطَّت القرية المصرية اسمها بحروفٍ من فخر في الموسوعة.

لكن أهلها فقراء مطحونين، لا يهمهم الظهور الإعلامي، ولا يعرفون للتسويق طريقًا، لذا رفضوا اللقاءات التليفزيونية والعروض بالظهور على شاشات التليفزيون، خصوصًا بعد أن رفضت إدارات تلك القنوات أن تمنحهم مُقابلًا من أجل الظهور عملًا بمبدأ أن عليهم أن يحمدوا الله أنهم نالوا شرف الظهور على شاشات تلك القنوات، موفّرين هذه النقود من أجل نجوم تمثيل وغناء يظهرون على تلك الشاشات يوميًا، اكتشف أهل القرية اكتشافًا مُذهلًا.. أن شرف الظهور هذا لا يُغني ولا يُسمِن من جوع، ولن يسد جوع أبنائهم، لذا توقفوا عن قبول تلك الدعوات وخبا بريق الأمر سريعًا، خصوصًا بعد أن قرَّرت تلك القنوات وهذه الصُحف ألا تتحدَّث عنهم كنوع من أنواع العِقاب.

وطأت أقدام الثلاثي الشاب هذه القرية بعد رحلة طويلة امتدَّت لما يُقارِب الاثني عشر ساعة، بدءً من الأوتوبيس العام الذي حملهم في رحلة استمرَّت ساعة تقريبًا إلى محطة

مصر برمسيس، ثم رحلة قطار استمرَّت لتسع ساعات تقريبًا وصولًا للمُحافظة، ومنها رحلة أخرى بسيارة بيجو 7 راكِب مُتهتِكة الأوصال، تكاد تنهار هرمًا ووهنًا استمرَّت لساعة وصولًا لأكبر مراكِز هذه القرية، ثُم سيارة ربع نقل احتلوا صندوقها الخلفي لساعة أخرى وصولًا لتلك القرية، نقد رأفت سائِق السيارة النقل ماله وعاد ليقف بجوار موسى المُنهمِك في تمطيط جسده محاولًا أن يُقنِع عضلاته ألا تؤلمه بهذا الشكل، بينما وضعت زينب حقيبتها أرضًا وهي تجلس فوقها خائرة القوى لا تقدر على الحراك، نظر لهما رأفت في دهشة وهو يشعُر بالأدرينالين يجري في عروقه مجرى الدم قائلًا: ما بكم؟ ألا تشعُران بالحماس؟. نظرت له زينب بغير تصديق وهي تقول: أتمنى لو أنني أملك القدرة على حمل هذا الحجر وإلقائه نحوك، لكنني لا أستطيع من شدة التعب. قال موسى للأرض وهو يقول: كانت هذه الرحلة عقابًا نستحقه بعد ما حدث في تلك الجلسة. راقَب حاجبي رأفت يرتفعان في دهشة، وإمارات الغضب تبدو جلية على وجه زينب قبل أن يقول: أستحقه.. عقابًا أستحقه. قبل أن يُضيف محاولًا تغيير دفة النقاش: والآن.. ماذا؟. تلفَّت موسى حوله قبل أن ينظُر في ساعته وهو يقول: سنحاوِل أن نسأل أهل القرية عن عادل، ونحاوِل أن نجمَع أكبر قدر مُمكِن من المعلومات قبل أن يتأخَّر الوقت، ومن ثم سنعود

للمركز لنبيت ليلتنا في الفندق المجاور لمحطة القِطار، وفي الصباح سنعود لمنازلنا مُسلَّحين بالمعلومات التي جئنا من أجلها. قالت زينب وهي تقف وتحاول أن تُرتِّب ملابسها قليلًا: تبدو خطة جيدة. بالطبع جذب وجودهم وطريقة ارتدائهم لملابسهم أنظار أهل القرية، خصوصًا مجموعة من الصِغار الذين التفوا حولهم يُراقبونهم بأعين يتقافَز منها الفضول، بحث رأفت في جيبه قليلًا إلى أن وَجَد ضالته، قطعة من البسكويت كان قد اشتراها في القطار ولم يأكلها، أمسك بها في يده، كان حريصًا على أن يراها الأطفال جيدًا قبل أن يُشير إلى أقربهم وهو يقول: تعال يا صغيري. تردَّد الصغير للحظات قبل أن يقترب بتوتُّر وهو يُقدِّم خطوة ويؤخِّر أخرى نحوهم، أعطاه رأفت قطعة من البسكويت وهو يسأله: هل تعرف شخصًا يُدعى عادِل... لم يتذكَّر باقي الاسم فنظر إلى زينب التي قالَت: ممدوح! عادل ممدوح؟. تغيَّرت ملامح الصبي، احتلّ الخوف ملامحه وهو يعطي قطعة البسكويت لرأفت وقد شَحَب وجهه وكأنه رأى شبحًا، هز رأسه وهو يركض ليبتعِد عنهم، ميَّز رأفت جسد الفتي المُرتعِد أثناء ابتعاده على الرغم من الجِلباب الواسِع الذي كان يرتديه، أمسَك قطعة البسكويت ولوَّح بها نحو باقي الأطفال وهو يسألهم: هل تعرفون شخصًا يُدعى عادل ممدوح يا أطفال؟. ركض الأطفال بعشوائية لا مثيل لها، انطلَق كل منهم إلى

اتجاه سريعًا وكأن الشياطين تُطاردهم، واحدة منهم.. كانت أصغرهم سنًا بدأت تبكي وهي تركض بعيدًا، شعر الثلاثة بالتوتُّر والخوف وهم يتبادلون النظرات وعلامات عدم الفهم تحتل قسماتهم جميعًا.

ساد الصمت للحظات قبل أن يُقرِّر موسى أن يقطعه بصوته الجهوري مُستنكرًا: هل أنت مخبول؟ تسأل أطفال عن قاتِل مُتسلسِل. رفعت زينب حاجبيها في دهشةٍ واستنكارٍ وقد أدركت مدى فداحة الخطأ الذي ارتكبه رأفت الذي احمرَّ وجهه خجلًا، حملوا حقائبهم وبدأوا في التجوُّل في طرقات البلدة يبحثون عن شخصًا بإمكانه المُساعدة، لكنهم كُلما توسَّموا خيرًا في شخص ما، هرب منهم بمُجرَّد أن يسمع اسم عادل ممدوح، ذكر كان أو أنثى، شابًا أو عجوزًا، كلما سَمِع أحدهم اسم عادل ممدوح فر هاربًا، وكأي قرية مصرية صغيرة تحترِم نفسها، تفشى خبر الغُرباء الثلاثة الذين يسألون عن عادل ممدوح كالنار في الهشيم في خِضَم لحظاتٍ قليلةٍ.

قبل أن يمُر وقتًا طويلًا وجدوا أنفسهم أمام رجلًا طويلًا يحتل شاربه نصف وجهه ويرتدي معطفًا ثقيلًا، يحمل فوق كتفه بندقية قديمة شكوا في أنها ما زالت تعمل من الأساس، ظهر بغتةً وكأن الأرض انشقَّت وبصقته أمامهم،

قال بصوتٍ أجشٍ: ماذا تريدون؟. تأمله موسى قليلًا قبل أن يتقدَّم خطوة للأمام ليقف في مواجهته بتحدي وهو يقول: من أنت؟ وما شأنك بنا؟. بهدوءٍ يُحسَد عليه قال الشخص المُسلَّح: أنا فرج الدهَّان.. شيخ غفر هذه القرية، والآن.. من أنتم؟. خفَّت وطأة حديث رأفت حين عَرِف كُنه مُحدِثه وهو يقول: « نحن هنا من أجل فيلم وثائقي، هذا هو المُونتير... أدرك صعوبة الكلمة بالنسبة لمُستقبِل الحديث فاستدرك قائلًا: الذي يقوم بأعمال المونتاج، السيد رأفت البلتاجي، وهذه مُخرِجة الفيلم، المُخرِجة الشهيرة، الأستاذة زينب الراعي، وأنا السيناريست.. الذي سيقوم بكتابة الفيلم واسمي موسى أبو المكارِم. لم يبدو على شيخ الغفر أن الأمر يعنيه من الأساس، نظر لهم من فوق شاربه وهو يقول: و..؟. شعر موسى بالإحراج قبل أن يقول: نحن هنا من أجل القيام بفيلم وثائقي عن السيد عادِل ممدوح، القاتِل الشهير الذي... قاطعهم شيخ الغفر بصوت جهوري وهو يقول: لا نعرف أحدًا بهذا الاسم، والآن.. غادروا هذه القرية دون رجعة. حاولت زينب أن تعترض وهي تقول: ولكن يا سيد... قاطعها شيخ الغفر وهو يقول: دون لكن، غادروا.. الآن... قال رأفت محاولًا أن يُلطِّف الأجواء بلهجة حملت الكثير من العِتاب: أهكذا تستقبلون ضيوفكم؟ سمعنا أنكم أهل كـ... لم يُمهِله شيخ الغفر الفُرصة ليستكمِل حديثه وهو يُحرِّك بندقيته سريعًا

ليوجهها نحو وجوههم قائلًا في صرامة ملفوفة بالغضب: الآن. لم يجدوا بدًا من التراجع أمام غضبه وفوهة بندقيته التي يتراقص الموت بداخلها، حملوا حقائبهم وتسلَّحوا بخيبة الأمل وهم يمشون عائدين إلى الطريق مرة أخرى، تساءلت زينب: والعمل؟. قال رأفت بغضب: هل لديكِ أفكارًا من أجل إقناع السيد فرج بالتحدُّث إلينا؟ أو بإقناع أي فرد من أفراد الأسرة بالتحدُّث معنا؟. ابتلعت لسانها وقرَّرت أن تصمُت تمامًا، كان موسى يشعُر بالغضب، كان مُنهمِكًا في ركل الحجارة المُلقاة على الأرض وهو يسُبّها بصوتٍ خافتٍ

بســــــــــــــــت

سمعوا الثلاثة الصوت يأتي من يمينهم، وقفوا مكانهم وهم ينظرون نحو اليمين، نحو أطلال منزل مُتهدِّم تحوَّل لمكب نفايات قذر، كان يقف شابًا يتوارى خلف بقايا جدار أبى أن يسقُط مثل أقرانه وهو يكرِّر النداء

بســــــــــــــــت

أشار لهم أن يقتربوا، تبادلوا النظرات قبل أن يضع موسى حقيبته أرضًا وهو يُشير لرأفت وزينب ألا يتبعوه وهو يتحرَّك نحو الشاب الغامِض بخطواتٍ بطيئةٍ: من أنت؟ وماذا تريد؟

تجاهل الفتي أسئلته وهو يقول: تسألون عن عادل ممدوح؟. هز موسى رأسه بحماس وقد نسى أنه طرح أسئلة تجاهلها الشاب، أشار له الشاب وهو يبدأ في الحركة سريعًا قائلًا: اتبعوني. أشار لهم موسى وهو يُسرِع الخُطى خلف الفتى خشية أن يتوه عنه أو يبتعِد عن ناظريه، حمل رأفت حقيبته وحقيبة موسى وهو يتحرَّك بخطوات سريعة أشبه بالقفزات خلفهما، ومن خلفه زينب بخطواتٍ أنهكها التعب.

مشوا طريقًا طويلًا خلف الفتي الذي كان يحفظ الطريق عن ظهر قلب وصولًا إلى عشة صغيرة من الخشب تقف بوهنٍ وسط اللا شيء، تحفها الصحراء من جميع الجهات، أمامها مصطبة صغيرة قذرة تجلس فوقها سيدة عجوز تلف رأسها في شالٍ قديمٍ وترتدي نظارة شمسية وتعبث في الأرض بعصا نحيلة، توقَّف الفتى وهو يشير إليها قبل أن يفر هاربًا من أمامهم بعد أن أنهى مُهِمته.

وصل رأفت إلى موسى ووقف بجواره وهو يسأله بصوتٍ هامسٍ: من هذه؟. وكأنها سمعته – رغم أن صوته كان خافتًا للغاية – فوقفت وهي تستنِد إلى العصا التي تحملتها رغم نحافتها لتقف أمامهم، خلعت الشال عن رأسها لتظهر رأسها المُحطم ووجهها المُشوَّه وهي تقول: أنا روحية الشوَّاف.. الوحيدة التي لا تخشى الحديث إليكم. شهقت زينب في

رعب وهي تتراجَع للخلف أمام قسوة المشهد.

(9)

جلسوا على الأرض أمامها دون حراك، ما زال قلب زينب يدق بقوة بسبب التشوُّه البالِغ الذي طال رأس ووجه السيدة روحية الشوَّاف، جلست روحية على المصطبة وعادت مرة أخرى تعبث في الحصى الموجود على الأرض بطرف العصا قبل أن تقول:

« هل ترون السُخرية الموجودة في الأمر؟. لم يرد عليها أحدهم، بالطبع لا يرون السُخرية الموجودة في الأمر، هذه هي مرتهم الأولى التي يُقابلونها فيها، وكانت هي ذكية وتعرِف جيدًا أنهم لا يرون أي شيء، لكنها نجحت في جذب انتباههم لها، قالت بعد دقائق من الصمت: الشوَّاف.. اسمي روحية الشوَّاف، لكنني كفيفة لا أرى. ضحكت بسُخرية مليئة بالمرارة قبل أن تُضيف: أنا الوحيدة القادِرة على الحديث إليكم عن عادل ممدوح، لكن قبلها عليكم أن تعرفوا أن لكل شيء مُقابِل. تبادلوا النظرات في دهشة للحظات قبل أن يمُد رأفت يده في جيبه ليُخرِج محفظته، قالت بصرامة: المُقابِل ليس نقودًا يا رأفت، ضع محفظتك في جيبك. سألها بدهشة: كيف.. كيف عرفتِ؟. بالطبع كان يقصد كيف عرفت أنه أخرج محفظته على الرغم من عدم قدرتها على الرؤية، لم يكُن يسألها كيف عرفت اسمه لأنهم أخبروها بأسمائهم قبل أن

يجلسوا في حضرتها.

ابتسمت وهي تقول: ربما نزع الله عني نعمة البصر، لكنه لم يحرمني نعمة البصيرة. اكتفى بها الثلاثة كإجابة على الرغم من غموضها، أعاد رأفت محفظته إلى جيبه مرة أخرى وموسى يسألها بفضول: وما المُقابِل الذي تُريدينه؟. « الحكي. انعقد حاجباه في عدم فهم وهو يسألها: ماذا؟. ابتسمت وهي تقول: الحكي، أريد أن أحكي قصتي وأن أقص عليكم أمري، أحتاج أن أزيح الأمر عن كاهلي ليرتاح قلبي وتصفى روحي. لم ينبس أحدهم ببنت شفة، ساد الصمت فتوقَّفَت عن العبث بعصاها في العصا وهي تنظر خلفهم دون هدف مُحدَّد وتقول: لم يكُن عادل ممدوح أول قاتِل مُتسلسِل يظهر ها هنا في بلدتنا، سبقه الدرفيل، لا نعرف اسمه الحقيقي، ولا نعرف من أين أتى، ظهر فجأة وهو يحمل بين راحتي كفه موجة من القتل المُنظَّم، يقولون أنه ابن حرام، جاء إلى دنيانا بسبب علاقة آثمة بين العُمدة وخادمة في دوَّاره، ألقته أمه في القمامة ورباه الشيطان بنفسه، أمده بالقوة والقسوة حتى صار الدرفيل الذي يقتل دون تردُّد أو رحمة، ويقولون أيضًا أنه أحد رجال الأعمال المشهورين في وجه قبلي، وأنه يخلع رداء الشرف والنزاهة الذي يرتديه نهارًا، ليرتدي بدلًا منه لباس القسوة ليلًا، ويردِّدون أنه مجذوب، شاب فقد عقله بسبب خيانة زوجته له، اختلفَت

الأقاويل، لكن النهاية كانت واحدة.. كان الدرفيل يقتل النساء الوحيدات، سواء كانت تعيش بمُفردها بعد وفاة أهلها، أو استقلَّت بعيدًا عن ذويها، أو حتى من كانت مثلي.. زوجها مسافر إلى دولة عربية ولم تُنجِب بعد. قاطعتها زينب وهي تقول: لماذا سموه الدرفيل يا خالة روحية؟. ابتسمت روحية حين نادتها زينب بلفظة خالة، قالت برفقٍ: بسبب كِبر حجم جسده يا بنيتي، كان ضخمًا عريض المنكبين، مُحدَّب الظهر بعد الشيء، حدبته أشبه بالزعنفة، حتى أنك لو رأيته ليلًا.. لحسبته درفيلًا يمشي على قدمين، قتل من قتل، وهاجم من هاجم، تصاعدت شُهرته، وبدأ الخوف منه ينتشِر بين الناس، عادت من هجرت بيت أهلها، وتشاركت الوحيدات البيوت ليلًا هروبًا من وحدة تجذبه كالمغناطيس، إلا أنا.. لطالما عشقت وحدتي ورجوتها من العالم، وافقت على زوجي فقط لأنه كان كثير السفر وسيتركني وحدي أغلب الوقت، بالطبع كان قاسيًا، مثله مثل أغلب الرجال هنا، لكن قسوته كانت ثمنًا بخسًا لوحدتي. صمتت قليلًا وهي تُمسِك بقُلة كانت تنتظرها بجوار المصطبة، رشفت منها رشفة صغيرة قبل أن تستكمِل حديثها: قلَّ عدد الوحيدات، وبدأ الدرفيل يلاقي صعوبة في اصطيادهن، لكنني كُنت صيدًا سهلًا، لا أنام إلا ونافذتي مفتوحة، أعشق هواء الليل البارِد وأهيم ولعًا برؤية السماء الصافية ليلًا، ومنها دلف الدرفيل، كُنت نائمة.. تسلَّل

إلى غرفتي وهو مُمسِك بسلاحه، وقف بجواري لساعاتٍ طويلةٍ وهو يتأملني أثناء نومي، لم أستيقظ ولم يمل، في وقت ما من الليل.. استيقظت وجلة، شعرت أنني مُراقَبة، فتحت عيني لأرى وجهه المشوَّه، كان يبتسِم بسُخرية، لم أشعر بالخوف مثلما شعرت يومئذٍ، حاولت أن أصرخ لكنه كان سريعًا، يعرف كيف يُسدِّد ضرباته. صمتت قليلًا وهي تستجمِع شتات نفسها، يبدو أن تلك الذكرى آلمتها، احترموا صمتها ولم يتحدَّث أيًا منهم، بعد دقائق وقالت وصوتها يتهدَّج ألمًا: كان يحمل مطرقة في يده، 27 ضربة بالمطرقة فوق أم رأسي، 27 ضربة دون أن يتردَّد أو يبدي أي علامة من علامات الرحمة، لم يسعني الوقت لأصرُخ، كان حظي سيئًا للدرجة التي جعلتني لم أفقد وعيي، كُنت واعية، مٌنتشية بالألم، أشعر بكُل ضربة، أشعر بجُمجمتي تتهشَّم، أشعر بعيني وعصبها يتدمَّر، لكن ألمي كان عظيمًا، كان قويًا، نُقِلت إلى المُستشفى بعد أن اكتشفوا ما حدث في الصباح، لم يُصدِّق الأطباء أنني على قيد الحياة، فقدت وعيي بمُجرَّد دخولي المُستشفى وكأنني كُنت أنتظر الاطمئنان على أنني بين يدي من يهمه الأمر. أشارت نحو رأسها الذي يفتقد ربع حجمه تقريبًا ووجهها المشوَّه وهي تقول: فقدت ربع جُمجمتي تقريبًا، وعيناي الاثنتين، والعديد من التشوهات التي أحمد الله أنني فقدت بصري قبل أن أراها، ربما لم

أكن سأستطيع الحياة مع تلك الجروح والإصابات، سقطت فريسة لغيبوبة استمرَّت اثني عشر يومًا، وحين أفقت.. وجدت أنني فقدت بصري، لكن الله الغفور الرحيم منحني البصيرة، صرت أرى رؤى كثيرة، وكلها تتحقَّق، أرى الأرواح وأتتبَّع خُطاها، أعرف أنكم لا تصدقوني، لكنني سأثبت لكم.. أريد فقط شيئًا واحدًا. أنهت قصتها تمامًا قبل أن تصمت للحظات وهي تقول: إمنحوني الفرصة. سألها رأفت وهو مرفوع الحاجبين: أي فرصة. قالت وهي تنظر نحوه وكأنها تراه: فرصة الانتقام.. أريدكم أن تضموني إليكم، وصدقوني.. الرؤي الخاصة بي ستكون أكثر من نافعة، وكي أثبت لكم هذا.. سأقص عليكم قصة عادل ممدوح.. سفاح القطط بالكامِل، وسأساعدكم على التغلُّب على روحه وإعادتها لعوالم الأرواح مرة أخرى. تبادلوا النظرات في دهشة قبل أن يقول موسى: لا ضير من وجودكِ يا خالة روحية. ابتسمت وهي تعتدِل في جلستها قبل أن تقول: حسنًا.. أنصتوا السمع، فلن أكرِّر حرفًا مما سأقول، سأقص عليكم قصة عادل ممدوح.. سفَّاح القطط وبالتفصيل.

الباب الثاني

سفَّاح القطط

(10)

استيقظَ مرزوق الصغير من نومه فَرِحًا، تحرَّك في الظلام نحو فراش شقيقه التوأم الذي يُشارِكه الغُرفة وهو يهزَّه برفقٍ ولينٍ وهو يهتِف بحماس: رزق.. يا رزق.. استيقظ. فتح رزق عينيه وهو يبتسِم بكسل قبل أن يقول: كيف عُدت بهذه السُرعة. انتفخَت أوداج مرزوق الصغير وهو يقول بفخرٍ لا حدود له: لطالما كُنت أبرع منك سواء في الذهاب أو العودة

ابتسم رزق ولم يُعقِّب، نظر نحو باب غرفتهما المُغلَق قبل أن يسأل مرزوق: هل عاد؟

أنصَت مرزوق السمع قليلًا قبل أن يقول: لا أظن.. لقد كُنا أسرع منه. ضحك رزق وهو يقف بجوار شقيقه نافضًا الكسل عن جسده النحيف، تحركا سويًا نحو باب الغُرفة، وعلى الرغم من الظلام الدامِس الذي يُسيطر على كُل شيء، إلا إنهما تحركا وكأنهما يريا جيدًا، وكأن الظلام لم يكُن عائقًا يعترِض سبيل وصولهما لباب الغُرفة، وقف رزق خلف الباب وهو يُنصِت السمع قبل أن يقول إلى مرزوق بابتسامة:

والدتك في المطبخ. ابتسَم مرزوق وهو يُنصِت السمع كشقيقه قبل أن يقول: هل تسمع صوت التقطيع؟ يبدو أنها تستخدِم السكين الضخم! هل تعتقِد أنه أخبرها؟. قال رزق ضاحكًا: أراهنك أنه أخبرها بكُل شيء. تبادلا النظرات وعينيهما الصغيرتين تلمع في الظلام ومرزوق يقول: هيا بنا؟. لم يجيبه رزق، فَتَح باب الغُرفة وهما يخرجان للضوء الذي يملأ البيت، على الرغم من هذا.. إلا أن أعينهما بدت وكأنها تكيَّفت مع الإضاءة سريعًا، ركضا بخطوات صغيرة نحو المطبخ، فتيان توأمان صغيران يقطنان مع والدتهما بيت صغير في قرية فقيرة في الصعيد مشهورة بكوم التوم، والدهما يعمل سائِق شاحنة في إحدى الشركات، لذا يغيب عن البيت بضعة أيام من كُل أسبوع، لكنه يحرِص على قضاء بقية الوقت في بيته ووسط عائلته، يحبهما ويحبانه، يتوق لهما وينتظرناه بشغفٍ، كعادة التوائم في كُل مكان، ارتديا بيجامتين مُتشابهتين، تعالت ضحكاتهما وهما يتسابقان نحو المطبخ، سمعتهما والدتهما فارتعد جسدها، جذبت عباءتها بعيدًا عن صدرها وهي تتفل فيها دلالةً على إصابتها بحالة رعب مؤقتة قبل أن تبتسِم لمرأى ولديها الصغيرين يقهقهان فرحًا بعد أن أصاباها بالخوف.

صاحت بهما في مرح: لماذا استيقظتما أيها القرود الصغيرة. قال رزق في حماس وهو يحتضن فخذها: نريد

أن نأكُل كبابًا. انعقد حاجبيها وهي تقول بحيرة: ومن أين لنا بالكباب يا ولد؟. احتضنها مرزوق وهو يقول: أبي.. أبي قادِم في الطريق ومعه كيس بلاستيكي به كباب وكفتة. ازداد انعقاد حاجبيها وهي تسألهما: كيف عرفتما هذا الأمر؟. تبادلا النظرات في خوفٍ وقلقٍ، وضعت السكين الذي كانت تقطِّع به طبق سلطة جانبًا وهي تجفِّف يدها في ذيل عباءتها قبل أن تمسِك بهما في حركةٍ سريعةٍ من آذانهما قبل أن يهربان من أمامها وهي تسألهما: كيف عرفتما يا آخر صبري؟. قال رزق مُتلعثمًا: رأ.. رأيــ.. رأيناه. أحكمت قبضتها على آذانهما لتؤلمهما قليلًا وهي تسألهما مرة أخرى: أين رأيتموه؟. صرخ الصغيرين في ألمٍ ومرزوق يقول مُسرِعًا: على أول الشارع، عند محل عم سلامة البقال، سيصل بعد قليل. رفعت أحد حاجبيها في إنكار وعدم تصديق قبل أن تنظُر نحو باب الشقة المُغلَق وهي تقول: لم يُغادِر أحدكما البيت. صمتت قليلًا وهي تتركهما يستعيدا حريتهما وهي تتنهَّد في حزن مُتسائلة: لماذا تكذبان؟. كان مرزوق مُنهمِكًا في دعك أذنه محاولًا تخفيف الألم الذي يشعُر به، بينما شعر رزق بالغضب فوضع يديه في وسطه بشكل كوميدي وهو يحاوِل الاحتجاج على نعت والدتهما لهما بالكذب وهو يقول: نحن لا نكذِب.. أنتِ التي ترفض تصديقنا!. ابتسمَت في سخرية وهي تقول: ماذا أصدِّق؟ أنكما تتحولان ليلًا لزوج من القطط؟

أنكما تجوبان الشوارِع طوال الليل كأرواح حبيسة في جسد قطتين صغيرتين؟ هل هذا كلام يُصدَّق؟. قال رزق بغضب: هذه هي الحقيقة يا أمي!. تجاهلتهما وعادت لتقطيع السلطة مرة أخرى، لا تعرف ماذا سيُحضِر زوجها معه، اليوم هو اليوم الذي سيعود به من العمل بعد أسبوع قضاه على طريق السفر بمقطورته، من عاداته أنه يُحضِر معه طعامًا جاهزًا في مثل هذا اليوم، ومن عاداتها أن تصنع له طبق سلطة ضخم، اعتادت أن تفعل هذا لسببين.. أولهما أن السلطة طبق يصلُح ليزيِّن كافة الموائد، فأيًا كان الطعام الذي أحضره زوجها.. بكُل تأكيد سيحتاج طبق سلطة بجانبه، وثانيهما.. أن زوجها يعشق السلطة ويقدسها.. لا يتناول طعامه دون طبقًا من السلطة.

قبل أن تنتهي من تقطيع طبق السلطة، سَمِعَت الطرقات الخافتة التي تردَّد صداها في البيت، تركت السكين مرة أخرى وهي ترمُق الصغيرين بنظرةٍ كادت تحرقهما أحياء وهي تقول: عطلتماني يا ملاعين. جففت يدها في ذيل عباءتها مرةً أخرى وهي تهرع نحو باب الشقة بخطواتٍ سريعة، فتحت الباب وارتمت في أحضان زوجها وهو يقول بصوتٍ مليء بالإرهاق: أوحشتني يا أم أولادي. ابتسمت وهي تشعُر بالخجل وهي تنسحِب من بين ذراعيه وتبتعِد قليلًا لتسمح له برؤية ما يختفي خلف جسدها، تهلَّلت

أساريره وهو يصيح فَرِحًا: القرود الصغيرة مستيقظة. ترك ما بيده فوق المنضدة الصغيرة التي تجاور الباب وهو يركض نحوهما، سقط على ركبتيه وهو يفتح ذراعيه ليحتضنهما في حنان أبوي لا حدود له، سألهما بلينٍ: لماذا تستيقظان إلى مثل هذه الساعة المتأخرة؟. قالت زوجته من خلفه بلهجة تحمل الكثير من الاستياء: كانا نائمين، واستيقظا ليأكلا كبابًا من الذي ستأتي به. انعقد حاجبيه وهو يقول في صدمة: كيف عرفتما أنني أتيت بالكباب؟. قال رزق حذرًا: رأيناك حين وقفت بجوار محل عم سلامة البقال وأنت تلقي عليه السلام وتسأله عن صحة أطفاله. وقف الرجل مشدوهًا وهو ينظر لزوجته ويقول: بالفعل وقفت بجوار عم سلامة وسألته عن صحة أولاده لأن محمود اتصل بي وأخبرني أنهما ليسا في حالة صحية جيدة. قالت بكثيرٍ من التردُّد: ماذا تقصِد؟. نظر نحوهما قليلًا دون أن يجيبها قبل أن يتحرَّك سريعًا نحو المنضدة التي تجاور الباب، أمسك بالكيس البلاستيكي الذي كان يحمله حين دَخَل من البيت وهو يفتحه ليُخرِج منه طبقًا ملفوفًا في ورق فويل لامع، فض الورق سريعًا لتخرُج منه رائحة ذكية تنتشِر في البيت بأكمله وهو يريه لزوجته، كانت أصابِع الكُفتة وقطع الكباب تتراص بجوار بعضها البعض في تناغم، ومن تحتها بحر من البقدونس الأخضر يحتضنها بلين مُتجاهلًا قطرات الدهن التي تسيل فوقه

بفعل الحرارة لتترسَّب في قاع الطبق، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول لزوجته التي فغرت فاها وهي تُطالِع الطبق الذي يحمله بيديه: أقصِد أنهما يقولان الحقيقة تمامًا!.

(11)

المقعد غير مُريح، أم تراه اعتاد على مقعد مقطورته الوثير؟

يحسده بقية السائقين على هذا المقعد، لكنه كان ذكيًا، عَرِف أنه سيقضي أوقاتًا طويلة على هذا المقعد، فعمِد إلى تحويله لمقعد وثير يتحوَّل لفراش حين ينام ظهره للخلف، بالطبع دفع مبلغًا لا بأس به، لكنه كان سيدفع المبلغ ذاته على الأدوية والمُسكِّنات التي سيستخدمها لعلاج آلام ظهره، لكن هذا المقعد الخشبي الصغير الذي يجلس عليه كان مُتعِبًا، وقف بغتة فطالعته زوجته.. ابتسم لها في عصبية وهو يتأمَّل المكان من حوله، غرفة قذرة في بيت قديم تحوَّلت لمكتب استقبال بدائي، عدة مقاعِد صغيرة في حالة يرثى لها يجلس عليها المُنتظرون، مكتبًا قديمًا مُتهالكًا تجلس من خلفه فتاة عشرينية سمراء البشرة مُنهمِكة في قراءة إحدى مجلات الموضة القديمة، على الأرجح كانت الموديلات الموجودة على غلاف المجلة موضة في يومٍ ما من أيام الأربعينات، ابتسم وهو يتأمل السيدة العجوز التي ترتدي جلبابًا واسعًا وتجلس مُحتضِنة ابنتها الثلاثينية التي يبدو عليها التعب والإرهاق وهي تترُك رأسها يستسلِم فوق كتف والدتها، لاحظت العجوز أنه يتأملهم فابتسمت له في ضيق،

انتبه لما يفعَل.. فابتسم لها وهو ينظر لزوجته، فهِمت زوجته فتحرَّكت من مكانها نحو فتاة الاستقبال وهي تتحدَّث معها بصوتٍ خافتٍ، بعد عدة جُمل مُتبادلة بين السيدتين، أخرجت زوجته عملة ورقية وهي تضعها في يد فتاة الاستقبال التي تهلَّلت أساريرها وهي تتحرَّك لتزيح ستارة قذرة جانبًا وتدخُل إلى غرفة تفوح منها رائحة البخور.

عادت زوجته إلى جواره وهي تبتسِم في سعادة وفخر، عادت فتاة الاستقبال مرة أخرى إليهما وهي تقول بابتسامة واسعة: الشيخة راوية في انتظاركما. وهل كانت الشيخة راوية في انتظار الخمسة جنيهات التي أخذتيها لتتذكَّر أننا بالخارِج؟ لكنه قطعًا لم يجرؤ على التصريح بالسؤال الذي جال في ذهنه، استبدله بابتسامة صفراء وجهها نحو الفتاة السمراء وهو يزيح الستارة ليدخُل إلى غرفة دون باب، جدرانها عارية، سقفها يكاد يتهدَّم فوق رأس ساكنتها، كانت الشيخة راوية تجلس أمام وعاء نحاسي ضخم تلتمِع فيه أحجار الفحم التي تؤججها النيران ويتصاعد منها دخان كثيف عطر الرائحة يحرق العيون ويكتم الأنفاس.

جلس أمام الشيخة راوية وهو يتأملها، ترتدي جلبابًا ملوَّنًا، حتى لتُشبه البدويات اللاتي يفترشن الأسواق ليبعن الخضر والفواكه، يعلو رأسها عمامة كبيرة تجعلها أشبه بالرجال، أكل

الزمن في تجاعيدها وشرب، سمراء الوجه، عسلية العينين، ذات ابتسامة غامضة.

جلسوا أمامها، كان يتأملها في جرأة بينما نظرت زوجته للأرض في خوفٍ لا مُبرِّر له، دون أي مُقدمات قالت الشيخة راوية بصوتٍ مليءٍ بالثقة: عيالِك يتحوَّلون لـ كدايس. اتسعت عينا رضا في دهشة، كانت مُتأكِّدة أنها لم تُخبِر أي شخص بهذا الأمر، فكيف عرِفت راوية أن رزق ومرزوق يتحولان لقطط ليلًا، انعقد حاجبا فارس وهو يتأمَّل الشيخة راوية بشك، نظر لزوجته وهو يهمِس بغضب: كيف عَرِفت؟. اتسعت عينا رضا بهلع وهي تهز رأسها وهي تهمس له:

« لا.. لا أعـ.. أعرف. قالت الشيخة راوية بصرامة دون أن تنظر لهما: عيالكما يتحولان لـ كدايس. هزَّت رضا رأسها في خوف وهي تقول: أجل يا شيخة راوية، يتحولان لقطط، كدايس، أو بسس.. أيًا كان الاسم. صمتت راوية قليلًا وكأنها تنتظِر أن تُنهي رضا جُملتها التي كانت قد انتهَت منذ حين، حين تأكَّدت أنها لن تضيف المزيد، تساءلت راوية: كم عُمرهما؟. تلعثمت رضا في خوف، فحاول فارس أن يدعهما، وضع يده على كتفها وهو يحاول أن يبث بها الأمان، قرَّر أن يجيب سؤال راوية بنفسه فقال: اقتربا من الأربعة أعوام. قالت راوية من فورها دون أن تُفكِّر: فات الأوان. شهقت رضا

في خوفٍ وهي تتساءل بصوتٍ مُرتعِد:

« أي أوان؟. قالت راوية بغضب: كان عليكما أن تسقياهما لبن ناقة غير مغشوش قبل أن يتما الأربعين يومًا

ترقرقت عينا رضا بالدموع وهي تكاد تختنِق بعبراتها، بينما كان فارس يشعُر بالحيرة، كان يُفكِّر: ألا يوجد حل آخر؟ وقرَّر أن ينقِل حيز سؤاله من التفكير إلى الإعلان، سألها بصوتٍ عالٍ: ألا يوجد حل آخر؟. قالت وهي تنظر نحوه بغضب، الدُخان الكثيف المُتصاعد من المرجل النحاسي يزيد الأمور توتُّرًا: كان عليك أن تُفكِّر في هذا قبل الآن!. شعر بأنها تتحداه، شعر بالغضب، نظر لها شذرًا وهو يقول: وها قد فات الأوان، ولم أفكِّر في هذا، ألا يوجد حل آخر؟. شعرت بأنه يتحداها، ابتسمت بسُخرية وهي تقول:

« بإمكانك أن تتبرَّع بوزنهما ذهبًا، لكن الأمر سيُكلِفك كثيرًا، كان الأمر ليكون أرخص كثيرًا في صغرهما، لكنك من اختار التأخُر. كانت حدته تزيد الأمر سوءً، وكان ذكيًا بما فيه الكفاية ليُدرِك هذا، تغيَّرت لهجته وذهبت حدته بعيدًا وهو يسألها بلينٍ مُصطنع: أما وقد فات أوان كُل هذا يا حضرة الشيخة راوية.. ما الذي بإمكاننا فعله الآن. رفعت كتفيها وهي تقول بلا مبالاة: لا شيء، هناك بعض النصائِح والأمور التي يجب عليكما مراعاتها حتى تنتهي هذه الحقبة فقط.

سألها سريعًا: مثل؟. تنفست الشيخة رواية بعُمق، بدا جليًا أنها بدأت تشعُر بالملل وهي تقول: اتركوهما حتى يستيقظا بمفردهما، لا تشرعا في إيقاظهما حين غُرة، نبها عليهما ألا يتناولا أي طعام بالخارج.. أعرف شخصًا مات طفلاه لأنهما أكلا طعامًا مسمومًا كانت تبغي اصطياد فأر به، نبها على جيرانكما ألا يؤذوا القطط الصغار ليلًا، خصوصًا القطط التي لا ذيول لها خوفًا من إصابة أحدهما، خصصا لهما فراشين صغيرين في غرفة بعيدة عنكما حرصًا على حيواتهما.. وحذارى.. حذارى من ضرب أي قطط ليلًا. نظرت له نظرة ذات مغذى وعينيها تلتمعان بطريقةٍ مُخيفةٍ قبل أن تقول: والآن.. هم في انتظارك. انعقد حاجبيه وهو يكاد يسألها عمن في انتظاره لولا الظل الأسود الذي تحرَّك من ركن الغرفة المُظلِم ليُعلِن عن وجوده، عَرِف فارس أنها علامة على ضرورة رحيلهما من هنا.. وسريعًا، أمسك بيد رضا زوجته وهو يجبرها على القيام، جذبها كالشاه وهو يخرج من البيت بأكمله، كان قلبه يدُق بقوة.. فَهِم أن ولديه في انتظاره.. هناك أمر ما طرأ.. وعليه أن يكون بجوارهما.

بمُجرَّد أن فتح باب شقته حتى سمع صوتهما، يبكيان بطريقةٍ قطعت نياط قلبه، عدت شيماء شقيقته نحوه وهي تقول:

« من الجيد أنك أتيت الآن.. استيقظا منذ قليل على هذه الحالة ويرفضان أن يكفا عن البُكاء. سألها بدهشة: ماذا حدث؟. مطت شفتها وهي تضع طرحةً فوق رأسها قائلةً: لا أعرف.. كانا نيام واستيقظا يبكيان ويتحدثان عن جريمة ما. شهقت رضا وهي تعدو نحو غرفتهما، بينما قال فارس دون تركيز: ربما رأيا كابوسًا. اتجهت شيماء نحو الباب وهي تقول: سأذهَب.. لقد تأخرت على أبو العيال. تمتم ببضعة كلمات دون معنى وهو يتبع زوجته إلى الغُرفة، كانت تجلس على طرف فراش أحدهما وهي تحتضن الاثنين وتبكي لبكائهما، جلس بجوارها، مال مرزوق نحوه وهو يلقي بنفسه بين أحضان والده ويدفن رأسه في صدره، سأله والده وهو يربت على رأسه برفقٍ ولينٍ: ماذا حدث يا صغيري؟. قال الفتى من بين دموعه بصعوبة: رأينا جريمة قتل، قتل عادِل ابن العم ممدوح توأمه الأستاذ علاء. وضع فارس يده على فم صغيره وهو يقول بلهجة صارمة مليئة بالتحذير: اخرس.. أنتما لم تريا شيئًا، هل تفهمان؟

حاول رزق أن يعترض قائلًا: لكن... أتته صفعة من يد والده الضخمة لتجعله يبتلع بقية اعتراضه وهو يعود للبُكاء مرة أخرى، قال فارس: أنتما لم تريا شيئًا.. لم تسمعا شيئًا.. لم تعرفا شيئًا. نظر لهما، منهمكين في البكاء، صرخ بهما بغضب:

هل تفهمان؟. هز كلاهما رأسه دون أن يجرؤ أحدهما أن ينبس ببنت شفة، سألته رضا في خوفٍ: ماذا سنفعل؟. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول دون أن ينظر إليها:

سننتظر.. لن نكون فعل.. سنكون رد فعل لما سيفعل عادل ممدوح. لم تفهم ما مغزى كلامه لكنها كانت تعرِف جيدًا أنه لم يكُن في حالة تسمح له بالحديث، هزَّت رأسها وهي تدعو الله أن تمر الأيام القادمة على خير..

لكنها لا تعرف أن ما سيحدث.. أبعد ما يكون عن الخير.

(12)

كانت ليلة مشؤومة، لكن أحدًا لم يرَ بأم عينه ما حَدَث فيها، لكنهم رأوا النتائِج في الصباح الباكِر..

بدأ الأمر بصرخة الحاجة نادية العمشة، يطلقون عليها هذا الاسم لأنها أضعف سُكَّان القرية نظرًا، هجرها زوجها بعد زواجها منه بأسبوعين، حاربت العالم بأكمله من أجله، تحدَّت أسرتها وهدَّدت بالانتحار، اضطر أهلها لقبول الأمر بعد أن هدَّدتهم بأن تخلع ملابسها كاملة في وسط ميدان عام، لكنه نال منها مُراده وسرق مصوغاتها وهرب بعد مرور أسبوعين، هاجرت بمُفردها لتلك القرية بعيدًا عن أهلها وعاشت وحيدة تبكي حظًا عسرًا لم تستحقَّه يومًا ولم تُرده أبدًا.

بكَت حتى ذهب نظرها بغير رجعة، أضحَت لا ترى سوى خيالات وأطياف تتحرَّك، لم تعُد تعرِف للتفاصيل هيئةً ولا للملامِح شكلًا، كانت أول من ينام ليلًا، وأول من يستيقظ صباحًا.

تخرج لتطرق باب البيت المُقابل لدارها، حيث تسكُن الست ولاء وولديها التوأمان، توقظ ولاء من نومها لتُساعدها - عن طيب خاطر - في بعض الأعمال اليومية العادية التي يعوق ضعف بصرها عن تنفيذها بسهولة.

هذه المرة كان الأمر مُختلفًا، حين اقتربَت من النوم، تجعَّدت ملامحها لدرجة أن وجهها أصبَح أشبه بالورقة المُجعَّدة في يد مؤلِّف غير راض عما بها، شمَّت الرائحة وميَّزته فورًا، تفلت أرضًا وهي تقول: الشر برا وبعيد. كانت تعرف هذه الرائحة جيدًا، هذه رائحة الموت.. لا نقاش في هذا، اقتربت من باب الست ولاء واستعدَّت للطرق، هذه المرة لم تصطدِم أناملها بالخشب، بل اصطدمت بشيء مليءٍ بالفرو، انعقد حاجبيها وهي تتحسَّس هذا الشيء، إلى أن وصلت لمكان جرح كبيرِ في رقبة هذا الشيء، لم تعرف كُنهه بعد، لكنه ربما كان أرنبًا، لم تتحسَّس وجهه بعد، لكن هذا الجرح كان حديثًا، والدم يُصَب منه صبًا، شعرت بالسائِل اللزج وهو ينساب من بين أصابعها، ارتعَد جسدها ولم تعُد تقدر على تمالُك أعصابها.. فصرخَت.

في قريةٍ هادئةٍ مثل تلك القرية كانت صرخة كهذه كفيلة بقلبِ الأمور رأسًا على عقِب، استيقظ الجميع بقلوبٍ وجلةٍ ترتعِد من الخوف، لم يعرف أحدهم ما حدث بعد، لكن هذه الصرخة كانت بمثابة إنذار للجميع بوجوب الاستيقاظ.. فالقرية تشهد حدثًا جللًا.

وكم كانوا مُحقِّين، ثلاثة عشر بابًا، لثلاثة عشر دوارًا، بداخلهم ثلاثة عشر أسرة بينهم عاملًا مُشتركًا، البيوت تزخر

بالتوائم، لم يكُن هذا غريبًا في الحقيقة.. كان الغريب هو أن هناك من علَّق قطتين صغيرتين على كُل باب من أبواب هذه البيوت، تلك القطط ذيولها مقطوعة، منحور عنقها بالكامِل، ومُثبَّتة إلى أبواب البيوت بخناجِر فضية غريبة الشكل.

بكُل بيت توأمين.. ولكل بيت قطتين.

كانت صدمة عارمة سكنت قلوب الجميع، من ذا الذي نُحِتَت القسوة في قلبه وجرى العُنف في عروقه مجرى الدماء الذي قَتَل هذه القطط كُلها، وما هو الهدف من هذا؟ إلام يرنو؟

كُل هذه الأسئلة جابت عقول سُكَّان القرية بأكملهم، إلا أسرة واحدة.. كانت من ضمن الأسر التي وجدت القطط مُعلقة على بابها، لكنهم فهموا الأمر جيدًا.. هذا تحذير، وتحذير قاسي وشديد اللهجة..

وحدهم فهِموا، ووحدهم وقفوا وسط الجميع تكاد قلوبهم تتوقَّف رُعبًا وهم غير قادرين على النبس ببنت شفة، فَهِم الأسطى فارس وزوجته رضا الرسالة التي أراد القاتِل إرسالها للجميع.

القطط مقطوعة الذيول ترمز للتوائم الذي يتحوَّلون لقططٍ أثناء الليل، والذبح تهديد واضح صريح لا يحتاج لشرح،

والرسالة بسيطة.. توأمك رآني وأنا أقتُل.. وسيُقتَل.

جذب فارس زوجته من يدها بعُنف وهو يعود بها نحو المنزل، دخلوا وأغلقوا الباب من خلفهم، قالت رضا بلوعةٍ:

« ماذا سنفعَل؟. أشار لها أن تصمُت وهو يجوب الردهة ذهابًا وإيابًا، كان يُفكِّر كالمجنون، أي تصرُّف في الوقت الراهِن سيكشِف سرَّهُم، سيعرف عادل وقتها أنهم الأسرة المنشودة، حينها لن ينفع الندم.

قالت زوجته بغتةً: لنهرب.. لنترك هذه القرية بأكملها ونهرب من هنا. نظر لها شذرًا وهو يقول: لا.. سيعرف أننا هربنا خوفًا، وهذا يعني أن لدينا ما نُخفيه، وتلك ستكون إشارةً صريحةً لتورطنا في الأمر بطريقةٍ أو بأخرى. قالت وهي ترتعِد خوفًا: ألم تر كيف كان ينظُر إلى الجميع؟ كان يبحث بعينين يتراقص بهما الجنون عن أي شخص تظهر عليه بوادر فهم أو خوف. وقف وهو يقول شاردًا: ولهذا يجب علينا توخي الحذر جيدًا، لا نريد كشف سرنا. قالت مرة أخرى بطريقةٍ مُفاجئة: لنُخبِر الجميع. صرخ بها غضبًا: هل أنتِ حمقاء؟ يا رضا.. يا حبيبة قلبي.. إذا أخبرنا الجميع سيعرِف أننا من فَهِم، ومن فَهِم هو المطلوب.. سيهرب من القرية لقليلٍ من الوقت، وسيعود حين غرة ليحصد أرواحنا. سألته والدموع تترقرق في عينيها: وما.. وما العمل؟. قال وهو

يعود للتجوُّل ذهابًا وإيابًا: ما زلت أفكِّر. انتبه فجأة لشيء ما فسألهم باهتمام: أين الأطفال؟. قالت بلهجة مليئة بالقلق: في غرفتهما.. نيام. زفر بارتياح وهو يقول: حمدًا لله. قال بعد قليل من الصمت وكثير من التفكير: وكأننا في أحد مباريات الشطرنج، كُل حركة سنقوم بها يجب أن تكون محسوبة تمامًا، أي حركة مُباغِتة دون كثير من التفكير ستُكلفنا كثيرًا، بل وغاليًا.. ستُكلفنا حيواتنا، لن نستطيع الخروج من القرية في الوقت الحالي.. ولن نستطيع أن نُبلِغ الشُرطة... قاطعته مُتسائلة: لماذا؟. قال وهو شارِد غارق في التفكير: لأنهم لا يأخذون بشهادة القطط. صمت قليلًا قبل أن يُضيف: وكذلك لن نستطيع أن نكشِف سرَّه، لأن هذا يعني.. وبالضرورة.. أن نكشف سرنا، هذا قاتِل ونحن لسنا أهل لمجابهته. سألته مرة أخرى وهي ترتجِف هلعًا: ماذا سنفعل يا فارس؟ ماذا سنفعل؟. فجأة.. فرقَع بأصابعه وهو يقول بلهجة نيوتِن حين سقطت التفاحة فوق رأسه: وجدتها. سألته بغباءٍ تُحسَد عليه: ماذا وجدت يا فارس؟. شعر بالغضب وهو يقول: الفكرة.. التصرُّف السليم.. الخطوة القادمة. تهلَّلت أساريرها وهي تقول: حقًّا؟ ماذا سنفعل؟. قال وهو يبتسِم ابتسامة لم تفهَم مغزاها: سنُحارِبه بنفس الطريقة.

(13)

نظرت له فتاة الاستقبال بشكٍ وريب لا بأس بهما قبل أن تقول وهي تلوك قطعة من اللادِن في فمها: الشيخة رواية لا تستقبِل زوار دون ميعاد. قال لها بعصبية وهو ينظر في عينيها بتحدٍ: إذًا حددي لي ميعادا! لاكت قطعة اللادن بكثير من الغنج المُصطنَع قبل أن تقول: لا توجد مواعيد شاغِرة عند حضرة الشيخة قبل ثلاثة أشهُر. هزَّ رأسه بعصبيَّة وكأنه ينفُض عنها كلامًا لم يُعجبَه، قال لها: سأدفَع ضعف المطلوب مني. فتحَت مجلة الموضة القديمة وهي تتراجَع على مقعدها قائِلة: الأمر لا يتعلَّق بالنقود. كان يشعُر بكثيرٍ من الغضب يجري في عروقه، شعر برأسه يشتعِل ثورةً وضيقًا، صاح بها وهو يضرب المكتَب بقبضتيه صارخًا: الأمر يتعلَّق بأسرتي.. لن أرحَل من هنا قبل أن أقابلها.. الأمر مُنتهي. نظرت له من فوق مجلتها بأعين تمتلئ بالغضب وهي تقول: والأمر مُنتهي ها هنا أيضًا، ارحل يا حضرة.. ولا داعي للعنُف والصوت العالي، لا تستفِز الأسياد.. فلن تتحمَّل غضبتهم. كان قد اكتفى، مدَّ يدهُ في جانب قميصه ليجذِب قبضة الساطور الضخم المُلتصِق بجسده، شعر بسريان معدنه البارِد فوق جلده فشعر بالقوة تتدفَّق في عروقه، لم يكُن مُعتادًا على حمله، لكنه شعر بالثقة بمُجرَّد امتلاكه، كان الساطور

ملكًا لعبد الله، صديقه وأحد المُشاكسين ومُحبي المعارِك، لا يتخلى عن سلاحه ولا يتحدَّث إلا بنصله، لكن عبد الله يُحبَّه ولا يرفض له طلبًا، لذا أعطاه الساطور بمُجرَّد أن طلبه

وَقَف أمام الفتاة المسكينة التي شلّها الخوف في مكانها وهي تنظُر للساطور المُشهَر المرفوع عاليًا بأعين تترقرق بها دموع الرعب وهي تقول: أرجوك.. أرجوك يا حضرة. قبل أن ينبس ببنت شفة شَعَر بقوة غامضة لم يقدر على مقاومتها تعتصِر أصابعه فوق مقبض الساطور، صرخ في ألم وهو يفتح يديه سريعًا ليسقُط الساطور أرضًا وهو يهتز بعُنف، تخيَّل أنه يلمَح الظل الذي رآه المرة السابِقة وهو يغيب وسط ظلام ركن قريب، شهق في رعب وهو يتراجَع للخلف.

تبدَّلَت ملامح الفتاة الخائِفة لتمتلئ بالثقة وابتسامة سُخرية واسِعة تملئ وجهها وهي تقول: هل رأيت غضب الأسياد؟. قبل أن ينطِق بكلمة سمع صوت الشيخة راوية تصيح من الغُرفة المجاورة بصوتٍ جهوري عالٍ: تعال يا فارس... شهق وهو ينظر نحو الستارة القذرة التي تفصله عن عالمها المُظلِم، تردَّد للحظات، لكن شعوره بأن رضا - حبيبة عُمره - ورزق ومرزوق - فلذتي كبده - في خطرٍ جمٍ جعله يحسم أمره سريعًا وهو يتحرَّك بقدمين هشتين نحو الغُرفة.

حرق دخان البخور عينيه فدمعتا، وأزعَج غُثّانه رئتيه

فسعل بعُنف، رآها تجلس خلف مرجلها النحاسي المليء بالفحم والبخور، كان الدخَّان المُتصاعِد منه أكثف من المرة السابقة، وعينيها كانتا تلتمعان بطريقةٍ مُخيفةٍ هذه المرة، قالت له بصوتٍ أجشٍ: ليست كُل الأوقات مُناسِبة للُقيا. لم يتحمَّل جنون عينيها فنظر أرضًا وهو يقول: لكن الأمر... قاطعته بغضب مُعترِم: كُل الأمور طارئة يا فارس. لم يستطِع أن يُجيبها، قالت بلهجة الخبير العليم: الكدايس في خطر. هز رأسه وهو ما زال لم يرفَع عينيه من الأرض، فقالت:

« اجلس... تردَّد قليلًا، فأمرته بصرامة: اجلس. أُمِر.. فأطاع، جلس مُصغرًا وهو يشعر بالضعف والضآلة في حضرتها، أمرته أن يقص عليها ما حَدَث، فانساب على لسانه وصفًا تفصيليًا دقيقًا لكُل شيء حَدَث، طالعته قليلًا قبل أن تسأله:

« وما شأني أنا بالأمر؟ قال بيأسٍ: لا مُنقِذ لي سواكِ. قالت بثقةٍ: لم أرد سائِل يومًا.. سأساعِدك، لكن لتعلَم.. أنك ستكون مدينًا لي ما حييت. نظر لها وهو عاجِز عن شُكرها، قالت له وهي تُفكِّر: قُلت أنه قتل من القطط ما تجاوَز العشرين. تدخَّل مُصحِحًا: بل ستة وعشرين. ألقت بشيءٍ ما وسط الفحم فتأجَّجَت ناره عاليةً وراوية تقول: هل تريد أن تُطيل عذابه؟ أم أنك تُريد للأمر أن ينتهي سريعًا؟

قال مُصرِّحًا: أخشى أن يطول الأمر، فيجد من الوقت

برهة يؤذي فيها أطفالي. ألقت ببضع حبات أخرى من البخور وسط الفحم المُستعِر وهي تقول: هذه عين عفريت. ابتسم وهو يشعُر بأنها تُخفِّف وطأة الحديث قليلًا وهو يقول: أعرِفها.. أراها عند العطَّار. قاطعته بصرامة وهي تقول: تلك سُميَّت تيمنًا بها، لكن هذه.. عين العفريت الحقيقية. شعر بالذُعر يتملَّك منه، رغم معرفته بأنها على الأرجح تقول هذا لتدفعه نحو الجنون، لكنه لم يستطِع ألا يخاف أمام صرامتها وقوتها، استنشَقَت الدُخَّان وهي تقول: ست وعشرون ساعة.. سيلاقي بهم من الهول ما لا قِبل له به، ينتهي حين ينتهوا.. سيعيش ليرى عذابًا من كُل حدبٍ وصوبٍ. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يسألها: هل ما يزال هناك خطر عليهما؟. هزَّت رأسها وهي تستنشِق المزيد من الدُخَّان وكأنها تتنفسه قائلةً: لا تقلق عليهما.. اقلق على نفسك فحسب. انعقد حاجبيه وهو يسألها وعلامات عدم الفهم ترتسِم على وجهه: ماذا تقصدين؟. ابتسمت وهي تقول: أضحيت ملكي.. لقد اتفقنا، لا هروب من المكتوب ولا فرار من القدر، حين ينتهي الأمر.. لنا لقاء. هزَّ رأسه، كان سيوافِق على أي شيء مُقابل ضمان سلامة أطفاله، حتى أنه أتى إلى هنا ومعه من الجنيهات عشرة آلاف هي تحويشة العُمر كما يقولون، كُل ما ادخر يومًا، كان على أتم الاستعداد لدفعهم - بنفسٍ راضيةٍ - لو طلبتهم من أجل أن تفعل أي شيء لحماية أطفاله.

فتحت عينيها بغتة وهي تأمره: عُد لأولادك ولا تخرج من منزلك قبل مرور ستة وعشرين ساعة. هل.. هل رأي خيال قط غاضب يتشكَّل وسط سُحب الدُخان، بدا وكأنه يصرُخ غضبًا، لا.. على الأرجح لا، ربما تخيَّل الأمر فحسب بسبب التوتُّر والجو العام المُصاحِب للموقف كله، كما أن عينيه ما زالتا تحرقانه بفعل الدُخَّان، وقف وتردَّد للحظة هل يمد يده ليُصافحها أم أن عليه أن يهرع من هنا سريعًا.

لم يُفكِّر كثيرًا، كان قد اتخذ قراره سريعًا، ترك الغُرفة وخرج، وقعت عيناه على ساطور عبد الله بمُجرَّد أن خرج، سمع صوتها تقول في لهجة آمرة: اتركه.. فقد لمسوه وأصبح ملكًا لهم. كيف عرفت فيم يُفكِّر؟

لم يمتلك من الوقت أو الشجاعة ما يكفيه ليقف في انتظار إجابة سؤاله هذا، ترك المكان بأسره وهو يكاد يركض كالمجنون، من الجيد أنها لم تطلب نقودًا، تركتها له ليستطيع تعويض عبد الله عن سلاحه.

لم يكُن يعرِف أنها صادقة، وأنه تسبَّب في 26 ساعة من الجحيم لسفَّاح القطط.

(14)

الساعة 1:00 صباحًا.

انتصَف الليل منذ ساعة مضت، سامحًا لليوم الجديد بالبدء، في مثل هذه الساعة من اليوم السابِق بدأ عادل ممدوح نشاطَه كسفَّاح قطط لا بأس به، في مثل هذه الساعة بالأمس كان يرتدي قفازات سوداء سميكة، يلف حول وسطه حزامًا صنعه خصيصًا لهذا اليوم، كان مليئًا بالجيوب التي استطاع حشوها بخناجِر فضية كان قد جمعها على مدار السنين الماضية كهواية سريَّة لم يعرف عنها أحد أي شيء، تذكَّر شقيقه الذي خانه مع زوجته، توأمه الذي قطع حبل أخوتهما بنصل الخيانة البارِد دونما أي شعور بالندم أو الضيق، وزوجته.. حُب عمره التي لم تستطِع التمييز بين زوجها وتوأمه! كانت هذه صدمة وضربة قاسية بالنسبة له أكثر من الخيانة!

خرج في الليل ليصطاد القطط، ينحرها ويُعلِّقها بعد قطع ذيولها على أبواب أهل القرى من أصحاب التوائم، ابتسم وهو يعتدِل في غرفة مكتبه ذات الإضاءة الخافتة وهو يتأمَّل كوب الشاي الذي يتصاعَد منه البُخار، كانت زوجته تعرِف كيف تصنَع له كوبًا من الشاي بالنعناع الآن لولا أنها تجاوز شقيقه الخائِن في مُجمِّد يرتاح في ركن المطبخ، كان

قد قطع جُثتيهما إلى قطعٍ صغيرة وتركها في المُبرِّد لتتجمَّد، بهذه الطريقة لن تتحلَّل الجُثث ولن تظهر لها رائِحة، أخبر الجميع أن زوجته سافرت لأهلها في قرية مجاورة، بينما كان شقيقه انطوائيًا غير مُعتاد على الاختلاط بالجميع، لذا لم يكُن تبرير غيابه مُشكلة كبيرة، أفاق من فيضان أفكارِه على صوت خطوات خافِتة تأتيه من صالة منزله المُظلِمة، بدأت دقات قلبه تزداد وهو يحاول أن يسترِق السمع ليتأكَّد مما سَمِع، لكنه ضوء الأباجورة المجاورة له بدأ بالارتعاد، وكأنه يشاركه خوفه من المجهول، صوت الخطوات يقترِب، والضوء يرتعِد بطريقةٍ موترةٍ للأعصاب، لم يحاول أن يتحرَّك من مكانه، ربما لأن الخوف كان قد شلَّه ومنعه من الحركة، وربما لأنه لم يكُن مُستعِدًا لمُواجهة القادِم من الظلام.

لحظاتٍ قليلة مرَّت وصوت الخطوات يقترِب ببطء مُخيف من غُرفة مكتبه، ربما كان لص اقتحَم المنزل، تحسَّس درج مكتبه القريب منه، خنجره الفضي المُفضَّل يستريح في هذا الدرج في انتظار أن يُخرِجه عادِل، مدَّته هذه الفكرة بالقوة والثقة بعض الشيء، توقَّف صوت الخطوات أمام باب مكتبه، انطفئ ضوء الأباجورة بشكلٍ نهائي، حاول أن يضغَط على زرها عدة مرات دون جدوى، يعرف جيدًا أنه ليس عطلًا في الكهرباء، لأنه يرى ضوء الشارع يأتيه من بين خصاص النافذة، ضرب الأباجورة بعُنف وعصبية وهو ينظر نحو الباب

مُبتلعًا ريقه بصعوبةٍ بالغةٍ، شعر بيده ترتجِف جرَّاء الخوف، دفنها بين فخذيه وهو يضغط عليها بتوتُّر، عاد الضوء بغتة ليراها.. كانت تقف أمام باب مكتبه، لكنها.. لكن هناك شيئًا مُختلِفًا فيها، لم تكُن قطعة واحدة.. كانت عبارة عن مجموعة من القطع المُجمَّدة تتراص فوق بعضها البعض بصعوبةٍ، تقف أمامه كلغز من نوع البازل، لكنه غير جيد الصُنع، يعرف جيدًا هذه الأجزاء، فقد قطَّعها بنفسه، قبل أن يضعها في المُبرِّد، لكن رأسها كان مفقودًا، لم يكُن رأسها الذي يستريح فوق كتفيها المفصولين عن بعضهما البعض بشق كبير، لكنه كان رأس قط، قط شرس الملامح، فكه مفتوح وكأنه يصرخ صرخة احتضار.

حرَّك القط فاه وهو يقول: هل افتقدتني؟. لكنه صوتها هو الذي أتاه من بين شفتي القط، هزَّ رأسه وهو يحاول أن يفتح الدرج بيدٍ مُرتعِدة، لكن الدُرج لم يستجِب له، سمع ضحكة ساخِرة تتردَّد من بين شفتي رأس القط اللعين، تراجَع بمقعده للخلف، كان يريد الوقوف لكن جسده بأكمله كان يرتجِف، كانت هذه المرة الأولى التي يشعُر فيها بمثل هذا الفزع، لم يكُن يعرف من الأساس أن بإمكان المرء الشعور بمثل هذا القدر من الرعب، ارتجف الضوء مرة أخرى، نظر إليه للحظة قبل أن يعود لينظر إليها، وجدها أمام مكتبه تقف وعلى شفتي القط ترتسِم ابتسامة شر جمَّدت الدم في

عروقه.

شهق وهو يتراجَع بمقعده سريعًا، انقلَب للخلف وسقط على رأسه، حاول أن يعتدِل، بيدين ترتجفان استند إلى أرض لم يشعُر بها ليقف على أقدام تطيعه بصعوبة، نظر إليها لكنها لم تكُن هنا، اختفت.. لم تترُك أثرًا وكأنها لم تكُن هنا منذ لحظات، تنهَّد وهو يشعُر بقليلٍ من الارتياح، قبل أن يبتسِم شعر بدفء يأتيه من خلفه، كان كفيلًا بجعل الشعيرات الصغيرة التي تملأ جسده تنتصِب وقشعريرة رعب باردة تسري في جسده بأكمله، سمعها تسأله همسًا من خلفه: هل تبحث عني؟. ألتفت خلفه وقد قارَب على البُكاء، توقَّع أن يجدها أمامه لكنها لم تكُن هنا أيضًا، للمرة الثانية يشعُر بالدفء من خلفه، هذه المرة شعر بقطرة من العرق البارد تهبط على ظهره ببطء شديدٍ، سمعها تهمس في أذنه من خلفه: ألهذه الدرجة تريد لقائي؟. للمرة الثانية يلتفِت خلفه سريعًا، وللمرة الثانية أيضًا لا يجد لها أثرًا، لم تكُن موجودة، هذه المرة لم يشعُر بأي شيء، لا دفء، لا همس، لا شيء!

تنهَّد بارتياح، مسح عرقه البارد الذي ملئ وجهه بأكمله، وهو يبتسِم بسُخرية، كيف سمح لعقله أن يتلاعب فيه بهذه الطريقة؟ هذا هو المُبرِّر الوحيد، كما أنه لم ينل قسطًا كافيًا من النوم، أجل.. أجل.. هو مُتعَب ويحتاج للراحة، نظر تلفَّت

حوله مرةً أخيرةً ليتأكَّد أن الغُرفة خالية وأنه بمفرده فيها، نظر أسفل المكتب ولم يجد شيئًا، عدَّل من وضع مقعده وهو يجلس عليه، أمسك بكوب شايه الذي برد قليلًا، رشف منه رشفة سريعة وهو يُمسِكه بكلتا يديه.

كانت دقات قلبه قد هدأت قليلًا، ذهبت قشعريرة جسده إلى غير رجعه، قهقه بعصبية وهو يحاول التخلُّص من الخوف التي اعتراه، لكن القدر لم يُمهله الوقت الكافي لإنهاء قهقهته.. قطعها وهو يرى نقطة ماء تهبط في كوب شاي لتعكِّر صفو سطحه.

كان هذا هو المكان الوحيد الذي لم يبحث فيه، سقف مكتبه، نظر للأعلى ببطءٍ شديدٍ ليراها تقف على السقف مقلوبة وكأنها تتحدى الجاذبية، شعرها يكاد يمسّه دون أن يدري، ولولا نقطة الماء التي سالت من جسدها الذي بدأ يتفكَّك لما عَرِف مكانها أو شعر بوجودها.

في اللحظة التي تلاقت فيها عينيه مع عينا القط، رأي ابتسامة ساخرة ترتسِم على وجهه وهو يقول له: بـخ!. وانطفئ ضوء الغرفة تمامًا ليسود الظلام..

تحرَّك في الظلام كالمجذوب، لا يحسِب لخطواته حسابًا ولا يُفكِّر في تصرف أو فعلة، يتحسَّس الظلام بيديه بحثًا عن حائط يُحدِّد عن طريقه مكانه ليستطيع أن يبدأ رحلة

هروبه من هذا الظلام اللعين، سمع الهمس يتردَّد من حوله

« هل أوحشتَك؟. يأتيه من كُل مكان، يتلفَّت يمنةً ويسارًا، دون أن يقدِر على تحديد مصدره، يحاول الهروب لكن ممن وإلى أين؟ يحاوِل أن يفر كالمجذوب من قدرٍ لا هروب منه، يتمنى لو أن هذا الكابوس ينتهي..

« هل أوحشتَك؟. الصوت يأتيه من خلفه، من أمامه، من يمينه، من يساره، من فوقه، ومن تحته، تُحاصره وكأنها تدور من حوله، تتحدَّث بعشرات الألسنة في آنٍ واحدٍ، تُخاطبه وهي تحمل بداخلها أرواح قطط غاضبة، تنتظِر أن تسنَح لها الفُرصة المُناسِبة لتهاجمه..

« هل أوحشتك؟. قشعريرة باردة تنتاب جسده، العرق البارد يكاد يغرقه، رجفة تمنعه من التحرُّك بطريقةٍ سليمةٍ، يحاول أن يتحسَّس طريقه، لكن الحوائط تبتعِد عنه وكأنها تهرب منه، يشعر باليأس يغزو قلبه دونما تردُّد، يكاد يستسلِم لها، لكنه لم يعتاد الاستسلام يومًا، ألقى نفسه نحو جهة كان مُتأكِّدًا أن بها حائط ينتظره، عَرِف أنه مُحِق حين اصطدم رأسه بالحائِط

« هل أوحشتك؟. لا.. لم يصطدِم بالحائِط، لقد ألقى بنفسه بين أحضانها، سمع قرقرة تأتيه من الجحيم، شعر بيديها الباردتين تُمسكان به، تعتصره في حضنها الثلجي، تخرج

لسانها القططي وهي تلعَق جانِب وجهه، رائحة كريهة تسيطر على المكان بأسره، يشعر بلعابها اللزج وكأنه يحرق وجهه ويترك علامة لن تزول من روحه الوجِلة، يسمع همسها داخل أذنه..

« هل أوحشتك؟. بيأس بالغٍ يبعدها عنه، ينجَح في الهروب من فخها المُتجمِّد، يتحسَّس المكان بيديه مرةً أخرى، يكاد يفقد الأمل بشكلٍ نهائي، لم تكُن غرفة مكتبه يومًا بمثل هذا الاتساع، تتحرَّك أصابعه كديدان جائعة تبحث عن حائط أمل يُشبعها، لكنها لا تجده..

« هل أوحشتك؟. هذه المرة وجده، لمسه، تحسَّسه.. تأكَّد أنه حائِط وأنه لم يُلقى بنفسه بين أحضانها مرة أخرى، في اللحظة التي كاد يترك بها الغرفة عاد الضوء، أنار الغرفة بأكملها، وجد نفسه وحيدًا مرة أخرى، هذه المرة لم ينسى أن يفحَص السقف، لا شيء.. المكتب فارِغ، يتنفَّس الصُعداء دون أن يتوقَّف قلبه عن النبض بقوة، حتى ليكاد يخترِق صدره، خرج من الغُرفة سريعًا وهو يفتح أزرار قميصه، يشعر بالاختناق، وكأن الهواء ينفذ، يشعر بدوارٍ عنيفٍ يكتنِف رأسه، لم يتوقَّف جسده عن الارتجاف، فك أزرار قميصه العلوية وهو يمسح صدره المليء بالشعر الذي بلَّله العرق البارد، توجَّه مُترنحًا نحو غُرفة نومه، أمسك بمقبضها وهو

يفتحها، دخل إلى الغُرفة وهو يتحرَّك نحو سريره، لكنه قلبه بدأ يشعر بالخوف مرةً أخرى، دون مُبرِّرات تُذكَر..

تحسَّس الحائط المجاوِر للباب إلى أن وَجَد غايته، مفتاح إضاءة غُرفته، ضغط عليه، وكما توقَّع.. وجد

كانت تجلس على الفراش في انتظاره، ترتدي قميص نوم مفتوح يكشِف عن مفاتنها المُتجمِّدة وجسدها المُقطَّع إلى أشلاء، تجلس وسط بركة ماء بلَّلت الفراش بأكمله جراء ذوبان الثلج عن جسدها، رأس القط يرتكِز فوق رقبة زوجته، تتحسَّس جسدها أمام عينيه وكأنها تُغريه، يُخرِج القط لسانه ليلعَق شفتيه في شهوةٍ حيوانيةٍ مُقزِّزة، يسمعها تتحدَّث داخل رأسه..

« هل أوحشتك؟. يكاد يفقد وعيه، لا يتحمَّل جهازه العصبي هذا الكم من الصدمات، يرتعِد جسده وهو يراها تُعري جسدها أمامه، يكاد كتفها يسقُط وهي تشير له أن ينضَم إليها، يشعر بمعدته تنقبِض، يريد أن يتقيأ.. لكنه لن يُجازِف بأن يرفَع عينيه عنها، فعلها من قبل في المكتب ولا ينوي أن يُكرِّرها مرةً أخرى، تراجَع للخلف وهو يراقبها تخلع قميص النوم، لا تتوقَّف عن لعق شفتيها، ولا تتوقَّف معدته عن الانقباض، سمعها من خلفه

« هل أوحشتك؟. نظر للخلف للحظة قبل أن يُدرِك ما فعلته،

وقع في فخها كالغر الساذِج، نظر للأمام مرة أخرى ليرى وجه القطة يبتعِد عن وجهه ميلليمترات، صرخ القط في وجهه، سيطرت الرائحة الكريهة على المكان بأسره، أشبه بمزيج من رائحة الكبريت والنحاس، شيء يُشبه البيض الفاسِد أو اللحم المُتحلِّل، شهق وهو يتراجَع للخلف، سقط أرضًا على مؤخرته، رفع وجهه لكنه لم يجِد لها أثرًا، نظر داخِل الغُرفة وهو يبحث عنها، لا شيء.. تبخَّرت

حاول أن يقِف، شعر بيدين باردتين تُمسِكان به من تحت ابطيه، سمعها تهمس من خلفه

« هل أوحشتك؟. انتفض وهو يندفع للأمام، كالعادة لا شيء.. ركض كالمجنون، كما لم يركض في حياته من قبل، يعرف وجهته جيدًا، باب الشقة بعيدًا، وقطعًا لن تترك له سبيل الهروب، سيذهب إلى دورة المياه، وسيُغلِق على نفسه من الداخِل، لن يخرُج إلا حين يسمع آذان الفجر، فتح باب الحمَّام ودَخَل، أغلَق الباب على نفسه سريعًا، انتظر قليلًا لكن شيئًا لم يحدُث، يبدو أنه استطاع الهروب منها هذه المرة، تنهَّد وهو يتحرَّك نحو حوض الحمَّام، فتح الماء البارد وهو يغسل وجهه جيدًا، يا إلهي.. هل إنتهى هذا الكابوس بغير رجعة؟

وقف وهو يتأمَّل وجهه في المرآة، بقعة داكنة على جانِب

وجهه لفتت نظره، نظر إليها بتركيز، تبدو كحرق خفيف، لقد ترك لسان رأس القط اللعين أثرًا على جانِب وجهه، حاول أن يغسله مرارًا وتكرارًا دون جدوى، لا يؤلمه الحرق، لكنه يترُك أثرًا مُزعِجًا لا يزول على جانِب وجهه.

أغلق صنبور الماء وهو يُمسِك بالمنشفة، جفَّف وجهه وهو يهمس لنفسه: لقد كان كابوسًا لعينًا. رأي الستارة التي تحيط بحوض الاستحمام وهي تتحرَّك، يد زرقاء اللون ظهرت من خلفها وهي تجذبها جانبًا، ظهر من خلفها وجه أخيه المُتجمِّد وقد ارتسمت على وجهه أعتى علامات الخوف وهو يقول بصوتٍ مُرتعِد: أنت أيضًا رأيتها؟. لم يتحمَّل الأمر، سقط مغشيًا عليه، اصطدم رأسه بالأرض، وبعد لحظات بدأت بركة دماء تتكوَّن حول رأسه ببطءٍ شديدٍ.. اتسعت لتحيط بجسده بأكمله في لحظات قليلةٍ..

(15)

فَتَح عينيه ببطء، يشعر بألم شديدٍ يجتاح رأسه دون توقُّف، يستريح جسده فوق شيء يتحرَّك بسُرعة، رؤيته ضبابية لا تسمَح له أن يكتشِف أين هو، يحاول لكن الضباب الأبيض يغشي أبصاره فيعميه عن الرؤية الواضِحة، الدوار لا يترك رأسه وحال سبيلها، هناك مطرقة من ألم تضرب جُمجمته من الداخِل، يغلق عينيه قليلًا وهو يشعر برأسه يستريح، يتوه في عالمٍ لا يعرف سوى اللون الأبيض، ويستفيق وهو يشعر بألم حادٍ في جانِب رأسه، يفتح عينيه.. هذه المرة يرى شخصًا يرتدي زيًا أبيض اللون ويغطي وجهه بقناعٍ طبي يُخفي ملامحه، يحاول أن يتحدَّث لكن الشخص يميل نحوه وهو يحدِّق في وجهه للحظات من خلف قناعه قبل أن يرفع يده التي تختفي داخِل قفاز طبي ويضعه أمام وجهه في إشارة بالصمت.

التزم الصمت وهو يتأمَّل المكان من حوله، أدرك سريعًا أنه في غرفة عمليات داخِل مُستشفى، اللون الأبيض يسيطر على كُل شيء من حوله، رائحة المُستشفيات الشهيرة تخترِق أنفه وتصِل لرأسه، يستفيق قليلًا.. يحاول التحرُّك لكن ستارًا أبيض اللون مُعلَّق أمامه لَفَت نظره، كان الستار مُعلقًا بحيث يفصل بين نصفه العلوي ونصفه السُفلي، طريقة تستخدمها

كثير من المُستشفيات ويستخدمها العديد من الأطباء، ما الذي حَدَث؟

بدأ الهلع ينتابه، ماذا يفعلون به؟ ما الذي يحدُث هنا؟ حاول أن يصرخ لكنه لم يجد صوته، لم تكُن هذه المرة الأولى التي يحاول الصراخ بها دون جدوى.. كيف يمنعوه من الصراخ؟

حاول أن يُحرِّك يده لكنه كانت مغلولة إلى إطار الفراش الحديدي، لا يشعر بنصفه السُفلي، لا يراه.. غير مُتأكِّد من وجوده أصلًا، يحاول أن يُحرِّر نفسه لكنه لا يستطيع، يهاجمه الصداع مرة أخرى، صداع حاد لدرجة أنه لم يقدر على فتح عينيه من شدة الألم، تعلَّم الدرس بالطريقة الصعبة، ترك رأسه يستريح فوق الفراش دون أن يجرؤ على الحركة، ولدهشته.. وجد الألم يتسلَّل بعيدًا.

بعد بضع دقائق أتاه الطبيب المُقنَّع، حاول أن يتحدَّث لكنه لم يجد صوته للمرة المليون، حاول أن يشير بيديه لكنهما كانتا مغلولتان إلى الفراش المعدني، على ما يبدو أن الطبيب فَهِم أنه يحاول التواصل معه، خلع قناعه بيده.. لكن عادل شهق من الخوف، نظر في عيني الخنزير الذي ظهر وجهه من خلف القناع وهو يبتسِم بسُخرية، اقتربَت مُمرِضة منه وخلعت قناعها بدورها، كانت عظاءة خضراء اللون ينعكس

الضوء على حراشفها، اقتربوا منه واحدًا تلو الآخر، حصان، قرد، ماعز، زوج من الخراف، وثلاث طيور مٌختلِفة الأنواع..

سمع صوتًا يهتف من بعيد: إتركوه.. فهو ملك لي... بدأوا بالابتعاد، اصطفوا على الجانبين تاركين ممر يسمح لأحدهم بالمرور، اقترب منه وهو يخلع قناعه.. كما توقَّع عادِل، كان قطًا لعينًا، حاول أن يُهاجمه لكن عادِل حاول أن يقاوم، حرَّك جسده بقوة، لكنه لم يقدِر على تحرير يديه، في خضم محاولاته للفرار من بين أيديهم صدم رأسه بطرف السرير المعدني، شعر بوعيه ينسحِب، هذه المرة لم يقاوم.. كان مُرحبًا باللون الأسود الذي سيطر على كُل شيء طالما كان هذا هو مهربه من هذا الكابوس.

***

استيقظ هذه المرة وهو يشهق بعُنف، كان في حمَّام منزله، يرقُد وسط بركة دماء لزجة، تحسَّس رأسه.. آلمته حين لمس الجرح، حاول الوقوف، قاوم الدوار الذي اكتنف رأسه، استند إلى الحائط وهو يُمسِك بمنشفة جافة ويضعها فوق رأسه، تأوه بألم لكنه كان يعرف أهمية ما يفعل في هذه اللحظات..

قبل أن يخرُج من الحمَّام تذكَّر شقيقه الذي ظهر من خلف ستارة حوض الاستحمام، تحرَّك نحوه ببطء، وإن كان الضوء قد كشف له عدم وجود أي شيء أو أي شخص خلفها، لكن

هذا لم يمنع رجفة قوية من التحكُّم في يده وهو يمدّها ببطءٍ نحو الستارة، جذبها بقوة لتكشف عن حوض استحمام فارغ وحائط نظيف.

تنهَّد وهو يتحرَّك نحو باب الحمَّام، ما زال جرح رأسه يؤلمه، فتح الباب ببطء وهو يخرُج، تأمل شقته يمنةً ويسارًا، لا شيء غريب.. تذكَّر الكابوس الذي رآه أثناء إغمائه، ارتعد مرة أخيرة وهو يحمد الله على أنه كان مُجرَّد كابوس، كاد يدلف إلى غُرفة نومه لكنه تذكَّر شيئًا هامًا، شيئًا يجب أن يفعله أولًا ليطمأن قلبه قليلًا، تحرَّك نحو غرفة بعينها، فتح بابها ببطء، تردَّد في دخولها للحظات قبل أن يحسم أمره، كان هذا شرًا لابُد منه، ضغط زر الإضاءة وانتظر للحظات حتى أضاء المصباح الغرفة بأكملها.

غرفة فارغة تمامًا، عارية إلا من جدران أربع تحاصرها من جميع الاتجاهات، في ركنها البعيد قبع مُجمّد يهدُر في خفوت دلالةً على أنه ما زال يعمل، ابتلَع ريقه بصعوبة وهو يتحرَّك نحوه، أمسك بمقبضه وهو يبسمل ويحوقِل قبل أن يفتحه ببطء، هاجمته الرائحة فورًا، تأفَّف وملامحه تنقبِض، قاوم شعورًا بالتقيؤ اجتاحه وهو ينظر داخِل المُجمّد، عجبًا.. كُل شيء على ما يُرام.

أغلق المُجمّد وخرج من الغرفة بأسرها بعد أن أغلق بابها،

خرج متوجهًا نحو غرفة نومه، دخلها وأغلق الباب وهو يُلقي بجسده المُتعَب على الفراش، كانت عينيه مُغلقتان، فلم يراها وهي تقف خلف الباب وتقترِب منه ببطء، ملامحها مُخيفة.. عينيها برتقالية اللون وكأنها تعكس ألسنة لهب من الجحيم، شعرها الرمادي يتطاير من حول رأسها بجنون، فستانها الأبيض القذر يمتلئ بالرقع والثقوب، أسنانها صفراء مسوَّسة، لسانها أسود اللون يظهر وهي تلعق به شفتيها، بالتأكيد لم يسمع صوت خطوات أقدامها.. ولن يسمعها أبدًا لأنها كانت تطفو فوق سطح الأرض وكأنها تطير..

وقفت أمامه وهي تفتح فمها وتصرخ صرخة ارتجَّت لها أركان المنزل بأكمله!

فتح عينيه في فزع، تأملها دون أن يعتدِل على الفراش، ظهر الخوف جليًا في عينيه، كان الفزع يسكُن قلبه ليزيد دقاته حتى ليكاد يقف خوفًا، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يعتدِل فوق فراشه، تُشبه زوجته الراحِلة لكنها ليست هي، عينيها التي تستعر بهما النيران تلتمِع في شرٍ وحقدٍ لا حدود لهما، تصرخ صرخات تزلزل البيت وتهد سلامه النفسي، تدكّه دكًا فوق أم رأسه.

تراجع فوق الفراش سريعًا للخلف، لم يتوقَّف إلا حين اصطدم بالحائِط، لعن الحوائط جميعًا بصوتٍ عالٍ وهو لا

يستطيع أن يشيح بنظره بعيدًا عنها، اقتربت منه، بدا وكأنها تخترِق الفراش، اقتربت منه، شعر بالبرودة تسيطر على كُل شيء، انخفضَت درجة حرارة الغُرفة فجأة، بدأ جسده بالارتعاد.. لم يعرف هل يرتعِد خوفًا أم تراه يرتعِد جرَّاء انخفاض درجة الحرارة بهذا الشكل المُفاجئ.

سألته فجأة بصوتٍ جحيمي صدئ: لماذا؟

تلعثَم باحثًا عن إجابة سؤال يعرف إجابته جيدًا، لكنه يعرف جيدًا كذلك أن إجابته لن تقنعها، حاول أن يصيغ إجابته بأفضل طريقة مُمكِنة قائلًا بصوتٍ يرتعِد: لأنكِ خائِنة. لم يتوقَّع رد فعلها أبدًا، رفعت يديها عاليًا وهي تصرخ بغضب قائلة: لم أخنك يومًا.. لقد خُدِعت. شعر بموجات عنيفة لم يقدر على مقاومتها، ألصقته بالحائط رغمًا عنه، كان الأمر أكبر من قدرته على المواجهة، قالت وهي تشير نحوه بيدها: لكنها.. إجابة.. خاطئة. شعر بيد ثلجية تُمسِك بقلبه وتعتصره بين أصابعها، جحظت عينيه وهو يحاول أن ينطِق، لكن الألم قاسٍ والبرد قارسٍ، حاول جاهدًا، تركته فشهق في يأس وكأنه يعود للحياة مرة أخرى، كان يتنفس بصعوبة وهو يُمسِك بصدره بقوة، عيناه جاحظتان لأنه لم يتوقَّع أن تتركه ليحيا دقيقة أخرى، سألته مرة أخرى وجحيم عينيها يلتمِع في غضب: لماذا؟. تردَّد مرة أخرى، أشارت نحوه بيدها، شعر

بيدها الشبحية الثلجية وهي تُمسِك بعنقه وترفعه عاليًا، كان يطير في الهواء مُلتصِقًا بالحائِط، حاول أن يقاوم، حاول أن يركل الهواء بقدميه لكن دون جدوى، كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، أغلق عينيه وهو يحاول التنفُّس، كان الأمر أشبه بالمُستحيل، ركل الهواء بقدميه مرة أخرى في يأس قبل أن يستسلِم للأمر الواقِع، قبل أن تتركه فجأة ليسقط أرضًا بجوار الفراش، سقط فوق ذراعه فتأوه بصوتٍ مكتومٍ قبل أن يسعل بعُنفٍ وهو يتحسَّس عنقه.

اقتربت منه، شعر بالبرودة تجتاح أوصاله، سمعها تصرُخ بغضبٍ عارمٍ: لماذا؟. كان قد تعلَّم الدرس جيدًا، الكذب لا يُفيد، تبحث عن الصدق، فليعطيها إياه، سعل مرة أخرى وهو يقول: عرِفت أنك كُنتِ في علاقة معه قبل زواجكِ مني. قاطعته وهي تشير بيدها، شعر وكأن قدمٍ عملاقة ركلته، طار جسده في الهواء كالدمية الخرقاء وهو يصطدِم بالحائِط المُقابِل، سعل مرة أخرى ورأي قطرات الدم تخرج من بين شفتيه، قال مُستدرِكًا موقفه: علاقة حُب، لكنها علاقة.. وأنا رجل لا أقبَل بهذا. أشارت بيدها مرة أخرى، طار في الهواء عاليًا وهو يصطدِم بالسقف، قبل أن يهوي من علٍ ليتكوَّم بالقُرب منها، عَرِف أن لكُل كلمة ثمن، قال: كان يحُبك منذ الصِغر، وكُنتِ تحبينه، كُنتِ سره الوحيد الذي أخفاه عن نصفه الآخر، الذي خبأه عن توأمه، وحافَظ على السر

حتى حين رآني أعجب بكِ وأطلب يدك من والدكِ، عرفت بالصُدفة البحتة حين طلب مني أن أدخُل شقته أثناء وجوده بالخارِج ورأيت دفتر مذكراته القديم على مكتبه، كُنت أعرفه جيدًا لطالما منعني من قراءته، لكن هذه.. هذه كانت فرصة مواتية، ولا يُضيع الفرصة إلا كُل أحمق، وأنا أبعد ما يكون عن الحمق، قرأتها وعرفت كُل شيء. شعر بسائِل لزج ينساب من ركن فمه، مسح فمه بظهر يده وهو ينظر إليها ليرى الدماء التي لوَّثتها، أكمَل حديثه وقد بدأ يشعر بالغضب مرة أخرى: كان يقول في مذكراته أنكِ ملاك، أنكِ تجعلينه يعيش أجمل أيام عمره، تذكَّرت المشاكِل التي جعلتني أغرق فيها، المشاجرات اليومية التي نخوضها دون راحة، الحُزن والقرف الذي أعيشه معكِ كُل يوم، وتعجبت.. لماذا عاش معكِ أسعد أيام حياته وأعيش أنا معكِ أسوأ أيام حياتي؟. سعل مرة أخرى وهو يلاحظ أن كمية الدماء زادت، قال سريعًا: كانت الإجابة واضحة.. كُنتِ وما زلتِ تُحبينه، تزوجتني فقط لأنني أشبهه، لم تحبينني يومًا، كُنت بديلًا عنه.. نسخة مُقلَّدة عن حُب عمركِ، وقرَّرت أن أضع حدًا للحُزن الذي صبغتِ حياتي به، وضعت له مثير جنسي في مياه الشُرب، وانتظرت إلى أن عاد، بطبيعة الحال يشرب المرء حين يطأ داره، خصوصًا في الأيام شديدة الحرارة، استدعيته للمنزل.. ونزلت.. تركتما بمفردكما، كُنت أعرِف أن المُثير الجنسي سيجعله يُخالِف كُل

الأعراف.. وكُنت أنتظر أن يختلي بكِ، لكنه كان مُحترمًا.. لم يجدني في الدار فهبط سريعًا. ضحك بجنون وهو يستكمِل قصته: لكن هذا لم يمنعني من تنفيذ الجزء الثاني من خطتي، قتلتكما.. منحتكما فرصة للالتقاء مرة أخرى.. لكن في الجحيم. صرخت في غضب، شعر بجدران المنزل تكاد تنخلِع من مكانها، أشارت إليه بيدها اليُمنى، شعر بنفسه يطير ليلتصِق بالحائِط مرة أخرى ويدها الشبحية الباردة تُمسِك بعُنقه، تحدَّثت بصوتٍ مليءٍ بالغضب متسائلة: لماذا؟. كان يعرف جيدًا أن في القصة ضلع ناقص، هو وحده من يعرفه، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول بصوتٍ مليءٍ بالخزي والعار: عرفت بعد ذلك أنني أحمق! عرفت أنكِ لم تحبينه يومًا سوى لأنه نسخة مني، لم تقترِبي منه إلا حين امتلئ قلبك باليأس من اقترابكِ مني، كان هو البديل.. أنني كُنت دومًا النسخة الأصلية وكان هو دومًا النسخة المُقلَّدة، ربما عاش معكِ أسعد أيام حياته، لكنكِ عشتي معك أسعد أيام حياتكِ. رفعته عاليًا وهي تُحكِم قبضتها على رقبته، قال وهو يتنفَّس بصعوبة: لم أكُن قد قرأت مذكراته بالكامِل، تسرَّعت واتخذت قراري وقتلتكما، لكنني بعد أن انتهيت منه، قرَّرت أن أقرأ بقيتها، وعرفت حينئذٍ كم مرة حاول الاقتراب منكِ ومنعته احترامًا لي! علمت كم مرة حاول أن يتحدَّث معكِ وأوقفته عند حده احترامًا لي! عرفت كم كُنتِ تحبينني وتحترمينني..

عرفت كم كُنتِ تتَّقين الله عرفت آنذاك أنني أتعس خلق الله الموجودين على سطح الأرض.. كم كُنت مُخطئ. جحظت عينيه ألمًا واللون الأزرق يتسلَّل إلى وجهه جرَّاء قلة الأكسجين الذي يصل لدمّه، لم يعُد يقدِر على المقاومة، سمعها تقول بغضبٍ ممزوج بالألم: أنت أحمق. أشارت بيدها اليُسرى فشعر بيدها الباردة تُمسِك بقلبه، اعتصرته بين أصابعها الشبحية.. لم يقدر على فعل أي شيء.. أغلق عينيه مٌستسلمًا للظلام للمرة الأخيرة..

استسلَم بعد أن أدرك كم كان غبيًا!

الباب الثالث

بوابات الجحيم

(16)

صمتت روحية بعد أن انتهت من قص كُل ما تعرف عن عادِل ممدوح، سفَّاح القطط الذي لا يعرفه الكثيرون، وربما كان هذا من حُسن حظهم، تنفَّس رأفت بعُمقٍ وهو يقول بصوتٍ خافتٍ: الموضوع أكبر مما كُنا نتخيَّل. قال موسى وهو ما يزال شاردًا يتفكَّر في حديثها: يا إلهي.. فيم ورَّطنا أنفسنا؟. سألت زينب بصوتٍ يرتجِف من شدة الخوف: هل.. هل بإمكاننا التراجُع عن الأمر وتركه للمُختصين؟. قال موسى بسُخرية تشوبها الكثير من العصبية: أجل.. لنُبلِغ الشُرطة ليجعلوا قسم مُطاردة الأرواح يُحقِّق في الأمر. تنحنحت روحية وهي تُعيد لف شالها على وجهها لتُخفي تفاصيله المُخيفة وهي تقول: لا تكونوا حفنة من الحمقى، أنتم لم تختاروا الأمر ولم تورِّطوا أنفسكم فيه، بل هو من اختاركم. سألها رأفت بقليلٍ من الانزعاج: ماذا تقصدين؟. قالت وهي تنظر نحوه وكأنها تراه: كُل الأمور تختار أصحابها.. نحن مُغفلين.. نظن أن الكون يسير تحت سيطرتنا وبأمرتنا، لكننا مُجرَّد ترس صغير لا يكاد يُرى بالعين المُجرَّدة.

قال موسى بسُخريته المُعتادة: كلام عميق من سيدة ريفية بسيطة، ما الأمر يا ست روحية؟. ابتسمت وهي تقول: مثلك مثل غيرك، تقيسون الأمور بقدرتكم على فهمها فحسب، لا ترون سوى قشرتها، ربما كُنت سيدة ريفية بسيطة.. ربما فقدت بصري.. لكنني امتلكت البصيرة، البصيرة التي أمدَّتني بخبراتٍ وتجارب أكبر من قدرة أيكم على التحمُّل. شعروا بالخجل جميعًا، خصوصًا موسى الذي قلَّل من شأنها بطريقةٍ لا تستحقها، تمتم باعتذار خافتٍ وهو يشيح بنظره بعيدًا، سألتهم زينب وهي ما تزال ترتجِف كالورقة في مهب الريح: والآن.. ماذا سنفعل؟. « لا أعرف. « لا أعلم. « لنعود للقاهرة فورًا. كانت الإجابتين الأولى والثانية من رأفت وموسى على التوالي، بينما كانت الثالثة من روحية، وقفت وهي تنظر نحو الفراغ قائلة: ومن هناك.. أعرف ماذا سنفعل!. شعر موسى وزينب بالحماس يتملَّك منهما، وافقاها على الفور، بينما كان رأفت دائمًا هو العقل المُدبِّر للأمور، لذا قال بعد قليلٍ من التفكير: حسنًا، بفرض عودتنا إلى القاهرة، لكل منّا منزل، أين ستُقيمين؟ بفرض أن الأمر استمرّ بضعة أيام. قالت في حدة: سأنام في أي مكان أستطيع النوم فيه، حتى لو أرضًا أمام أحد المساجِد، المُهِم الآن.. أن نعود للقاهرة قبل أن يصل لرزق ومرزوق. قالت زينب فجأة: هل يعيشان في القاهرة؟. « عندما قُتِل عادل ممدوح، لم يتحمَّل الأسطى

فارس الاستمرار في المعيشة هنا، فانتقل بذويه إلى القاهرة هربًا من شبح القطط، وسعيًا خلف لُقمة العيش، حيث أن فرص حصوله على عمل أفضل في القاهرة أفضل من فرصته أثناء إقامته في حفرة الفقر اللعينة تلك. قال موسى فجأة: هل ما زالت أسرتك تملك الشقة الموجودة في أول عباس؟. فكَّر رأفت للحظات قبل أن يقول: لا، باعها أبي منذ حين، لكنني أعرف سمسارًا جيدًا في تلك المنطقة، بإمكانه أن يدبِّر لنا شقة معقولة تصلح كسُكنى للست روحية على أن أدفع أنا إيجارها. ابتسمت روحية وهي تقول: وهو كذلِك. صمتت قليلًا قبل أن تُضيف: هلا بدأنا رحلتنا.. قبل فوات الأوان؟. وكأنها بحديثها دبَّت الحماس والأمل في أوصالهم، حملوا حقائبهم واستعدوا للرحيل بينما دخلَت روحية لمنزلها قبل أن تعود وهي تحمل حقيبة قديمة مُمزَّقة، لكنها كانت كافية لحمل احتياجاتها الأساسية فحسب، تحرك رأفت ومن خلفه موسى الذي حَمَل حقائبه هو وزينب، التي أمسكت بيد روحية وهي تُساعدها على المشي بسهولة.

تنهَّد رأفت وهو يُدرِك أن أمامهم اثني عشر ساعة من السفر المتواصل وصولًا إلى القاهرة مرة أخرى، بينما انهمكت زينب في حديثٍ يبدو هامًا مع السيدة روحية، ولم يلحَظ أحدهما النظرة الغريبة التي عَلَت وجه موسى للحظات قبل أن تختفي مرةً أخرى!

***

أجرى رأفت بعض المُكالمات الهاتفية في الطريق، ونَجَح فيما كان يبتغي، هاتف أحد الأصدقاء ليتكفَّل بالذهاب لأحد السماسرة الشهيرين في المنطقة، ولازمه إلى أن وجد شقة صغيرة تُناسِب احتياجات ومُتطلِّبات السيدة روحية، دفع ما يلزم على أن يرده له رأفت حين يصل للقاهرة، وسيكون في انتظارهم في محطة القطار بسيارته ليتولى إيصالهم إلى الشقة المنشودة.

كانت شقة صغيرة، مكوَّنة من غرفة وصالة، دورة مياهها كانت على الطراز القديم، تلك التي يُطلِق عليها أهل المُدن بلدي»، بينما لم تحتوي بين جنباتها على أي أجهزة كهربائية، وعدها رأفت بأن يأتي لها بتلفاز صغير يُسلِّيها لكنها رفضت، قالت بصرامة: لا وقت للتسلية. كان حديثها مُقتضَب، تستخدم الحد الأدنى من الكلمات لتُعبِّر عن نفسها، لا تتورَّط في أحاديثٍ جانبيةٍ تُضيع بها وقتها ووقتهم، كانوا مُتعبين للغاية، سافروا لأكثر من 24 ساعة مُقسَّمة على يومين، بلا أي راحة تُذكَر، سوى قليلٍ من النوم في قطار يهتز وكأنه يكاد يتهاوى من فوق قضبانه، تركوها في شقتها، تثاءب موسى وهو يقول: سنأتي لكِ في الصباح الباكِر كي نذهَب لزيارة رزق ومرزوق. رفعت حاجبيها في دهشة وهي تقول:

لا وقت للراحة، عادل يسبقنا بخطوة، يجب أن نتحرَّك قبل فوات الأوان. قالت زينب وهي تشعُر بالكثير من التوتُّر والعصبية جرَّاء الأحداث المُتلاحِقة التي مروا بها خلال الساعات القليلة الماضية: لكننا نحتاج للراحة. قالت روحية وهي شاردة في الفراغ: الأرواح لا ترتاح.. يجب أن نتحرَّك. قال موسى: لكننا لا نعرِف عنوان رزق ومرزوق.. لنستريح قليلًا، وفي الصباح سنسأل عنهما ونصل إليهما. زفرت في ضيق وهي تقول: أشعر بها يا صغار، بوابة من بوابات الجحيم فُتِحَت، ويجب أن تُغلَق، الأرواح لا تنام.. لا تكل أو تمل.. ولا تُضيع الوقت، علينا أن نتحرَّك قبل أن تتفاقم الأمور وتتطوَّر للأسوأ. صمت رأفت قليلًا وهو يعض شفته السُفلى قبل أن يقول وهو ينظر نحو صديقيه: أنا آسف. هزَّت زينب رأسها، كانت تعرِف جيدًا ما هو على وشك أن ينطِق به، لكنه تجاهل رفضها وأكمل حديثه على أي حال:

« لكن الست روحية مُحقَّة.. يجب أن نتحرَّك، سيأتي وقت الراحة بعد أن... صمت قليلًا وهو يتذكَّر ما نطقت به، قرَّر أن يستعير بعض كلماتها ليُزيِّن بها حديثه، تابع: بعد أن نُغلِق بوابات الجحيم، لكن الآن.. هناك أرواح مُعلَّقة في رقابنا جميعًا، سيموتون وسنتحمَّل جميعًا ذنب إزهاقها. قالت روحية وهي تنظر إليه فجأة وكأنها تراه: أحسنت يا رأفت. زفر موسى بيأس وهو يقول: حسنًا. شهقت زينب وهي

تُدرِك أنها خسرَت للتو الشخص الوحيد الذي كان يُسانِدها في قرار الحصول على قسطٍ كافٍ من الراحة أولًا قبل البدء في مُغامرةٍ جديدةٍ، قالت وهي تقف على مشارف جرف من بكاء: لكن.. موسى... أشار لها بيده وهو مُنكّس الرأس قائلًا: هُما مُحقّان. عقدت يديها في غضبٍ كالأطفال، وحاجبيها مُنعقدين، قال رأفت: شيئًا أخيرًا.. كيف سنصل لمنزل رزق ومرزوق؟. سعلت روحية فنظر لها الجميع، قالَت: قُلت لكم من قبل أنني فقدت البصر، لكنني لم أفقد البصيرة، بإمكاني أن أشعر بوجود الأرواح وأن أرى مسارها، أستطيع أن أصل لهما بكُل سهولة. صمتت قليلًا قبل أن تقول: هل بإمكانكم أن تثقوا بي؟. قال موسى: وهل نملُك خيارًا آخرًا؟. هزَّت رأسها في إشارة بالنفي، فقال: إذا لما أننا لا نملك أي خيارات أخرى.. فنحن نثق بكِ. ابتسمت ابتسامة صغيرة لم تدُم سوى للحظات قبل أن تقول: إذا.. على بركة الله نبدأ.

(17)

وقفوا أمام البناية يزاحمون بعضهم البعض، يقف حول البناية ما يُقارِب العشرة أشخاص، بعضهم يتحدَّث في الهاتف وهو ينقل ما يحدث أمامهم لشخصٍ آخرٍ وعلى وجوههم ابتسامة بلهاء وكأنه يُراقِب أحد العروض الحصرية في السيرك، بينما آخرين انهمكوا في تصوير الأمر بكاميرات هواتفهم، نظر رأفت من حوله بدهشةٍ قبل أن ينظر إلى البناية مرة أخرى.

الصرخات عالية، تشُق الصمت شقًا، أصوات الصراخ عالية مؤلِمة تجعل القلوب ترتجِف هلعًا، وعلى الرغم من أنهم على بُعدٍ كافٍ من البناية إلا أن الصرخات هزَّت سلام قلوبهم وجعلت القلق يسكن أرواحهم، يقف الناس في فضول يُراقبون الأمر ويحرصون على نقل تفاصيله لآخرين وتسجيل صرخات في مجموعة من الفيديوهات وملفات الصوت ستقبع في ذاكرات هواتفهم إلى حين قريبٍ، حتى يرفعها بعضهم على شبكات التواصل الاجتماعية مصحوبة ببضع كلمات من تلك التي تُحرِّك القلوب في محاولة لاستعطاف جموع المُتابعين من أجل حفنة اعجابات وتعليقات.

تلقَّت موسى حوله بعصبية وهو يسأل أقرب الناس له: هل

اتصل أحدكم بالشُرطة؟. نظر له الرجل وهو يبتسِم ببلاهة قائلًا: لا أعرف... قبل أن يعود لرفع هاتفه المحمول عاليًا وينهمِك في تسجيل الحَدَث مرة أخرى، بحث بعينيه عن رأفت الذي جذبه الزحام بعيدًا، سأله بصوتٍ عالٍ: والآن! ماذا؟. أشار له بيده رأفت أن يتبعه، وبحث بعينيه عن زينب ليجدها تقف بعيدًا بعض الشيء وهي تُمسِك بيد الست روحية بحرصٍ، أشار لها أن تتبعه بدورها، وأن تأتي بروحية في يدها.

وقفوا جميعًا أمام بوابة البناية المعدنية، تبادلوا النظرات، كُل منهم يبحث عن بريق يأس أو إشارة خوف تسنح له بالتراجع عن موقفه، وكل منهم يخشى أن يفعل ذلك كيلا يتهمه الآخرين بالجُبن والخوف، حسموا أمرهم في النهاية.. تقدمهُم موسى، مد يده المُرتعِدة نحو البوابة بنيَّة دفعها، في اللحظة الأخيرة سمع رأفت يقول: توقَّف. تسمَّرَت يده في الهواء وهو ينظر من فوق كتفه لرأفت الذي انحني ليُمسِك بقطعة خشب كانت مُلقاة على الأرض بإهمال وهو يعطيها لموسى آمره: ادفع بها البوابة.. لا تمسها بيدك. تردَّد موسى للحظات قبل أن يسأل ببلاهة: لماذا؟. قال موسى وهو ينظر للأعلى نحو البناية التي يأتي منها صوت الصراخ: لا نعلم سبب هذا الصراخ حتى الآن، ربما كانت نارًا موقدة أو كهرباء، والبوابة معدنية.. لا نريد أن نُجازِف أو نهمِل أية

تفاصيل. كان هذا ديدن رأفت، كثير التفكير والتدبُّر في كُل شيء حوله، لولا تحذيره لفتح موسى الباب دون تردُّد، دفع موسى البوابة بالقطعة الخشبية وهو يدلف منها، كادت تنغلق من خلفه، وقف خلفها وهو يدفع بابها ليسمَح لزملائه بالدخول واحدًا تلو الآخر.

ترك البوابة تنغلق من خلفهم بغير اكتراث، تقدمهم رأفت هذه المرة، كانت القطط السوداء تملأ السلم من الناحيتين سامحة للقادمين بالمرور عبر ممر جحيمي ضيِّق تكاد قلوبهم تتوقَّف فيه هلعًا، تموء القطط بشراسة وكأنها تُحذِّرهُم مما هُم على وشك مُلاقاته إن استمروا في رحلتهم، لكن فريقنا كان يعرف جيدًا سبب قدومه وبكُل تأكيد لن تردعهم بعض القطط الصغيرة - على الرغم من الخوف الذي دبَّ في أفئدتهم - عن مُهمتهم، صرخت بهم روحية ليعلو صوتها فوق مواء القطط: الدور الثاني.. قاربنا على الوصول. وكأن كلماتها دبَّت بهم حماسًا غير طبيعيًا، أسرعوا بالركض على درجات السلم وصولًا للدور الأول، تخطوه دون أي إضاعة للوقت صاعدين للطابق الثاني، عرفوا أنهم وصلوا لوجهتهم لأن القطط في هذا الطابِق كانت أكثر شراسةً من سابقتها.

نظر رأفت من خلفه للباقين وهو يقول: على من يُريد التراجُع الآن أن يتراجَع، فبمُجرَّد دخولنا من هذا الباب.. لا

مجال للرجعة. لم يتراجع أيهم، بسمل رأفت وهو يدفع الباب الخشبي بقدمه، داخِل الشقة كانت الأمور مُختلِفة، وكأن قطط العالم كُلها تجمَّعَت في غرفة واحدة فقط، بينما باقي الشقة على خير ما يُرام، عكس السلم الذي وقفَت به وكأنها تمنع أي شجاع مقدام من عبور الطريق نحوه.

كانت الغرفة تحتل الجهة اليُسرى من الشقة، يتصاعد موائهم من بابها المفتوح وكأنها ممسوسة من شيطانٍ رجيمٍ، اقتربوا جميعًا من باب الغُرفة، أمام أعينهم وقف عادل ممدوح، يطفو فوق الأرض دون أن يمسها، بشرته شاحِبة، حتى لتكاد عظامه تظهر من تحت جلده، هناك بضع قطع مُمزَّقة من جسده، تاركة كدمات ظاهرة للعيان، ترتعِد أطراف أصابعه في حركة عصبية وقد أزرقَّت، يبدو أن البرد ترك فيه أثرًا لن ينمحي بسهولة، يتطاير شعره حول رأسه في فوضى عارمة، يوليهم ظهره وهو مُنهمِك في الإشارة بيديه بطريقةٍ غريبةٍ وهو ينظر نحو رجل مسكين يرقد أرضًا وهو يصرخ في فزع، كان المسكين مُثبَّت أرضًا بفعل قوى غير مرئية، يرقد وسط ثُعبان أسود ضخم، قبيح الشكل مُنفرَه، يدور حوله في دائرة وكأنه يطارد ذيله دون كللٍ أو مللٍ، قالت روحية بهمسٍ خافتٍ: هذا رزق. ابتلع رأفت ريقه بصعوبة وهو يسألها بصوتٍ مُرتعِدٍ:

« وأين مرزوق؟. أشارت بيدها للأعلى في بطء، تبعتها الأعين التي يتراقص داخلها الخوف للسقف، حيث كان يرقد فوقه رجل آخر يُشبِه المسكين المُسجى أرضًا ومن حوله ثعبان آخر وكأنهما يتحديا الجاذبية سويًا، كان الرجلين نسخة طبق الأصل من بعضهما البعض في دلالة لكونهما توأم مُتماثِل، رزق مُثبَّت بالأسفل ومرزوق مُثبَّت بالأعلى، ومن حول كل منهما ثعبان أسود قبيح، بينما يقف عادِل بينهما وهو يتحكَّم في الثعابين بإشاراتٍ عصبيةٍ بيديه.

فجأة.. توقَّف عن الحركة تمامًا وهو يلتفت للخلف ببطء، التف عنقه مائة وثمانون درجة في وضع غير طبيعي، كان وجهه الآن على نفس مستوى ظهره، ابتسم وهو يتأملهم في شرٍ غريبٍ، ابتسامة واسعة كانت سببًا في ظهور أسنانه الصفراء العفِنة، دار جسده حول نفسه ليقف في مواجهتهم الآن، يتوسَّط صدره حفرة ضخمة تكاد أطرافها تتعفَّن، دون أن ينطق ببنت شفة حرَّك يديه سريعًا لتتحرَّك عشرات القطط عبر الحوائط وتقف في تكوين غريب لتُغلِق سبيلهم الوحيد في الهروب الآن، ابتلعوا ريقهم جميعًا ببطء وقد أدركوا ما فَعَل.. الآن هم أسراه داخِل هذه الغُرفة ولا سبيل للهروب!

***

فرِّق تسُد.

كانت هذه هي السياسة التي قرَّرت روح عادل ممدوح أن تستخدمها لتعبث بهم جميعًا، القطط كانت تزحف لتمر من بين الأقدام، وبطبيعة الحال بدأ الأصدقاء في تفاديها بقفزاتٍ سريعةٍ دون أن يدركوا ماذا يحاول عادِل أن يفعل بهم، وإحقاقًا للحق.. كان ذكيًا وكانوا خائفين.

لم ينتبهوا لخدعته إلا حين وجدوا أنفسهم في أركان الغرفة الأربعة، يسكن كُل منهم ركن بعيد عن الآخرين، القطط السوداء الشرسة تُشكِّل حدودًا تفصل كل منهم عن الآخرين، حاولوا مقاومتها لكنها كانت أشرس مما تخيَّلوا، لدرجة أن موسى فقد أعصابهم وهشَّم جمجمة إحداهن بكعب حذائه، وعلى الرغم من أنها تلفُظ أنفاسها الأخيرة إلا أنها استمرَّت في محاولة إيذائه، بهذه الطريقة سيكون بإمكانه أن يتخلَّص من رزق ومرزوق أولًا، ثم من هؤلاء بعد ذلك..

تركهم يحاولون الهروب من مخالب وأنياب القطط وعاد ليصُب جام تركيزه على التوأم، بإشاراتٍ حادة منه كانِت الثعابين تقترِب منهما لتضيق الخِناق حتى لكادت تعتصرهما، لولا سمع الجميع صرخة غضب تأتيهم من أحد أركان الغُرفة، كانت الصرخة كافية لتُشتِّت انتباه عادل للحظات، كان

موسى قد خلع ملابسه ومزقها، ربطها على يديه وهو يحمي بها وجهه وهو يصرخ راكضًا وسط القطط التي كانت تحاول النيل منه نحو عادل الذي اتسعت ابتسامته الساخرة وهو يشير بيده نحو موسى، وقف الأخير فجأة وكأن هناك سدًا خفيًا يمنعه من التقدُّم، برزت عروقه وهو يحاول الاستنجاد بالآخرين لكنه لم يعُد قادرًا على الحديث، أشار عادل بيده بلا مبالاة، طار جسد موسى ليلتصِق بالحائط، أشار عادل بيده في إشارة تُشبه النصف دائرة، فانقلب موسى رأسًا على عقِب، تركه بهذه الحال وعاد مرة أخرى للتوأم، سمع صوت رأفت يقول بهدوء: لماذا تفعل هذا؟. توقف كُل شيء تمامًا، حتى ليُهيأ للمرء أن القطط ذاتها توقفت عن المواء تمامًا في انتظار الإجابة، قال عادلٍ بصوتٍ أجشٍ صدئ قادم من الجحيم: الانتقام. قبل أن يعود لما كان يفعل بادره رأفت بالسؤال مرة أخرى: ممّن؟. ويبدو أن السؤال لم يُعجِب عادل لأن شراسة القطط زادت حتى كادت تلتهم رأفت حيًا، تراجع حذرًا قبل أن يشير عادل بيده ليطير رأفت في الهواء، اصطدم بموسى المُعلَّق على الحائط بقوة قبل أن يهبط كلاهما أرضًا، تأوه موسى ألمًا قبل أن يعتدِل رأفت وهو يُمسِك بيده وهو يقول: ممّن؟. لم يُجبه عادل، استمرّ في تحريك يديه سريعًا، ضيّقت الثعابين النطاق حول التوأم مرة أخرى، قال رأفت سريعًا وهو يستنِد بظهره إلى الحائِط:

لم يكُن ذنبهما. أشار عادل بيديه نحوهما بغضب، طار موسى يمينًا ورأفت يسارًا قبل أن تتوقَّف أجسادهما في الهواء ومن ثم تعود لتطير عكس الاتجاه، تلاقيا في المُنتصف، ارتطمت أجسادهما ببعضهما البعض في قوة، تلاقت رؤوسهما في اصطدامٍ عنيفٍ، جرح غائر فوق حاجب عين موسى اليُسرى بدأ بالنزيف، غطَّت الدماء وجهه، بينما بدأ أنف رأفت في النزيف، شعر بألمٍ هائلٍ لدرجة أنه لم يعد قادرًا على فتح عينيه، سقطا أرضًا مرة أخرى، أسرعت القطط الغاضبة مرة أخرى لتحاصرهما، بينما سقط كلاهما أرضًا وهما يتألمان بضعفٍ شديدٍ.

صرخت روحية فجأة بصوتٍ مليء بالغضب: كفى!. التفت الجميع إليها وتعلَّقت بها كافة العيون، تحدثت بصوتٍ رخيمٍ مليء بالثقة، وكأنها لا تخشاه ولا تخاف قططه الشرسة: لماذا تبحث عن الانتقام؟ وممَّن؟ رأوك حين كانا طفلين صغيرين، والآن هما رجلان كبيران ولم يفصحا عن سرَّك، حافظا على سرَّك ولم ينطقا به لمخلوق، لماذا تنتقم منهما؟ أم ترى الأمر يتعلَّق بشيء آخر؟. اختفت ابتسامته للحظة قبل أن يستعيد توازنه النفسي ويعود للتظاهُر بالسُّخرية مرة أخرى، لكن الجميع لاحظ أن كلماتها مسَّت شيئًا ما بداخله، قالت زينب: هل هي زوجتك؟. امتلأت عيناه بالحُزن، هدأت شراسة القطط قليلًا، لكن شعوره بالغضب كان كاسحًا، حاول رأفت

أن يوقف نزيف أنفه الغزير لكن دون جدوى، أما موسى فوقف وهو ينشج كالثور، انطلق نحو عادل مرة أخرى بسُرعة، ابتسم عادل للحظات وهو يختفي من مكانه فجأة ليعبر موسى المكان عدوًا كالثور الهائج قبل أن يعود للظهور مرة أخرى في مكانه، توقَّف موسى بغضب وهو يُدرِك ما حَدَث، تردَّد قليلًا قبل أن يعيد الكَرَّة، لكن عادل هذه المرة لم يتفاداه، لم يتحرَّك.. انتظر اللحظة المُناسِبة ليشير بيده أمام موسى الذي بدا وكأنه اصطدم بحائط خفي، ارتدّ عنه للخلف وهو يُمسِك برأسه بألمٍ شديدٍ، صاحت به روحية: أنت لست ندًا لنا، ارحَل بالحُسنى وإلا... قطعت كلماتها بعد أن طالت أحد القطط شالها، تسلقته مُسرعة وهي تحاول خمش وجهها بشراسة، لكن كلماتها جعلت فكرة ما تسيطر على تفكير رأفت، بالطبع هو ليس ندًا لهم، والآن.. يقع الأمر على عاتقه، بدأ في تذكُّر ما قصّته عليهم روحية، كانت القصة بأكملها تعدو في رأسه والوقت يطاردها، يعرف جيدًا أن لكُل ثانية ثمن في مثل تلك المواقِف.

بدأ يتذكَّر الجزء الخاص بهجوم الروح على عادل، يعرف قطعًا أن هذا الجُزء عرفته روحية بفضل بصيرتها لكن أحدًا لم يراه، بحث عن الإجابة في أدق التفاصيل إلى أن وجدها، لمعت عينه وهو يتلفَّت من حوله، يتجاهَل صرخات التوأم الذي اقتربت منهما الثعابين وبدأت في اعتصارهما، تلفَّت

وهو يتأمل جدران الغُرفة إلى أن وجد ضالته، جهاز تكييف ينتحي أحد الأركان في هدوء مُتجاهلًا الجحيم المُستعِر من حوله، عرف جيدًا أن لهذا التكييف جهاز تحكُّم عن بُعد، تأمَّل الغُرفة من حوله، أغلب قطع الأثاث تحتلها القطط الغاضبة وتتخذها سكنًا ومقامًا، لكن المكان الموجود في جهاز التحكُّم في التكييف يجب أن تتوفَّر به عدة شروط، قريب من الفراش.. سهل الاستخدام.. وجدها.. الكومود الموجود في ركن الغرفة بالقُرب من زينب، لكن كيف سيصل إليها وسط هذا الجحيم؟ لا يستطيع أن يصرخ بها لأن عادل سيدرك ما يحاول أن يفعل، عليه أن يجد طريقة ما!

فكّر.. فكّر.. فكّر..

حسنًا.. لا يوجد سوى حل واحِد، عليه أن يحفِّز موسى للهجوم على عادل من أجل أن يصب تركيزه على ردع هجومه بينما يستغل رأفت الفرصة ليركض نحو الكومود وسط القطط قبل أن تُدرِك ما يريد فعله، وبالفعل أشار لموسى بضع إشارات فهمها الأخير جيدًا، ورغم شعوره بالتعب وعضلاته التي تأن ألمًا إلا أنه استمرّ بالهجوم على عادل الذي استمرّ بدوره في ردع الهجمات المُتتالية بينما شق رأفت طريقه ببسالة وسط القطط الغاضبة التي ما انفكَّت تعضه وتخمشه في وحشية وهو يتجه نحو زينب،

صرخت زينب في خوف حين اقترب منها وهي ترى القطط تتعلّق في ملابسه في محاولةٍ لردعه، نظر عادل نحوه وفهِم أن في الأمر خُدعة رغم أنه لم يفهمها كاملة، من حُسن حظ رأفت أنه وصل للكومود ووجد ضالته بداخل أول أدراجه، فتح الجهاز.. سمع صوته المُميَّز وهو يفتح.. قلَّل درجة الحرارة لأقل شيء مُمكِن قبل أن يطير من مكانه ليصطدم بالحائط القريب منه وهو يسمع صراخ عادل يملأ المكان.

على الرغم من درجة حرارة الغرفة المرتفعة بفعل الزحام، إلا أن عادل كان يقف أمام تيار الهواء البارد المُندفِع من بين ريشات المُكيِّف، ازداد غضبه.. وقلّت حركته، بدأ يتحرَّك بتصويرٍ بطيءٍ، امتلأت عيناه بالفزع حين فهِم الأمر، كان رأفت ذكيًا.. أدرك أن نقطة ضعفه هي الطريقة التي مات بها، وعادل مات من شدة البرودة حين انخفضت درجات الحرارة في الغُرفة وقتما واجه روح زوجته الراحلة.

فجأة.. وأمام أعين الجميع بدأ جزء من الفراغ يتحوَّل لشيء يُشبِه كُرة مُفرَّغة بداخلها ما يُشبه شرارات زرقاء تُشبه الكهرباء، من خلفها تظهر ومضات من جحيم لا يرغب أيهم في رؤيته مرة أخرى طوال حيواتهم، بدأت روح عادِل تنجذِب داخِل هذه الكرة، شهقت زينب وهي تصرخ: ما هذا؟. قالت روحية بثبات وهي تستعيد شالها بعد أن ركلت إحدى

القطط التي كانت تحاول عض أنفها: هذه بوابة من بوابات الجحيم. بدأت روح عادل تنجذِب بداخلها، لكن الكرة تحوَّلت لما يُشبه الثقب الأسود، بدأت بجذب كُل الموجودات من حولها بقوة بداخلها، صرخت زينب بفزع وهي تبتعِد لتقف خلف الكُرة في محاولة ساذِجة للهروب من قوة الجذب القوية تلك، قالت روحية وهي تتحرَّك ببطء وثبات: ستُغلق تلقائيًا حين تعود الروح إلى مكانها. كانت روح عادل قد شارفت على الرحيل، يصرخ كأنه يحترق حيًا، كان موسى تعيس الحظ أقربهم للكرة، لم يستطع مقاومة قوة الجذب على الرغم من قوته، رآه رأفت فأدرك خطورة الأمر، وقرَّر أن يجازف بكُل شيء، خلع حزامه سريعًا وأحكم ربطه في أحد العواميد الخشبية الموجودة ضمن الدولاب، أمسك بالحزام وهو يحاول الوصول لموسى، أمسك بيده بصعوبةٍ بالغةٍ وهو يجذبه، لكن رأفت لم يكُن قويًا كموسى، وجد صعوبة بالغة في مقاومة الجذب.

كان الأمر خطيرًا، كاد موسى ينسحِب تمامًا داخل الكرة، لم يعد سوى كفه فقط خارجها، بينما عاد عادل للداخل واختفت صرخاته تمامًا، صرخ رأفت وهو يستدعي كُل ذرة قوة في عضلاته، جذب موسى خارجًا في سُرعة، سقط أرضًا وهو يُراقب الشرارات الكهربائية تفرقع بقوة قبل أن تختفي الكرة نهائيًا، نظر لرزق ومرزوق الساقطين أرضًا بإعياء، لكن كلاهما

كان على قيد الحياة، ابتسم له رزق بضعف وهو يشكره بضعفٍ، عاد بأنظاره نحو موسى وهو يسأله بصعوبة: هل أنت بخير؟. مسح موسى الدماء عن وجهه وهو يقول: هناك شيئين فقط أريد إخباركم بهما.. أولًا: لن تصدقوا أبدًا ماذا رأيت بالداخِل، لكن الأهم.. ربما كانت هذه البوابة قد أغلقت.. لكن أخرى فُتِحت.. رأيتها بأم عيني. نظروا لبعضهم البعض في قلقٍ، قبل أن تقول روحية: عملنا لم ينتهي.. لقد بدأت متاعبنا للتو.

(تمَّت بحمد الله)